

الأمانة العامة
ادارة نشر الثقافة الاسلامية

الإسلام.. والتعصّب

للأستاذ خورشيد أحمد

ترجمة

الأستاذ سعد زغلول أبو سنة

سلسلة مجمع البحوث الاسلامية

السنة التاسعة ـ العدد ٨٧ ـ جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ هـ ـ مايو سنة ١٩٧٧م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

تقـــديم

لفضيلة الدكتور الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية

عرفت الأستاذ خورشيد أحمد أول ماهبطت أرض إنجلترا عام ١٩٦٦ م ، عرفته رجل جهاد فى سبيل الإسلام ، وصاحب مدرسة تدعو للإسلام وتعرِّف بثقافته ، وقدم لى بعض كتبه حين لم تكن معرفتنا موثقة ، ولا صداقتنا وطيدة ، وأكبرته من بعد وقدرت جهاده وجهاد أصحابه فى بلد غير إسلامى . ثم حببنى فيه أكثر مالمسته من صلته بالكاتب الإسلامى الباكستانى الشيخ أبى الأعلى المودودى . وهو قد ترجم بعض كتبه إلى الإنجليزية وشكر الله له ما ألف وما ترجم .

وبحكم إقامته بين غير المسلمين وقراءته مايكتبون عن الإسلام وما يلصقون به من تهم ، همه أن يدفع عنه تهمة ترددت كثيرا على لسان أعدائه وأقلامهم ، وإن كانت فى الوقت الحاضر أقل نشاطا وأخف وطأة من ذى قبل – وهى رمى الإسلام بالتعصب؛ ويجد القارىء أن المؤلف فى لفتة ذكية لمح أسباب التعصب والتخاصم بين الأديان ، وأرجعها إلى نفور رجال الدين من العلم ، وجمودهم عند قوالب الألفاظ تارة وعند ما أَلِفُوا من العادات الموروثة تارة

أخرى ، وقد حالت هذه النزعة بينهم وبين أعمال العقل والرجوع إلى المنطق ، لهذا كان رجال الدين المسيحى فى كثير من المواقف عدوا لرجال العلم؛ أما الإسلام فخاطب العقل واحتكم إلى المنطق ، وقال لخصومه : « إنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ، فهذه طريقته قبل أن توجد طريقة التجريد الحديثة ، نضع المقدمات أولا ، ونتحقق من صحتها ، ثم نستخرج النتائج منها ،وما دامت المقدمات صحيحة فلا جدال فى صحة النتائج، ودعا القرآن إلى التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، والنظر فى تاريخ الماضين ، وشجع على البحث والاستنتاج ، واستكشاف المجهول : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا » . « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها » « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » ؟ . والذى يحتكم إلى المنطق ويعمل العقل لا يتعصب ولا يفرض رأيه ، لهذا امتاز الإسلام بين الأديان الأخرى بالتسامح ، وقابليته للجدل النزيه . لم يحارب رجال العلم كما حاربتهم المسيحية ، ولم يجعل عقيدته وقفا على طائفة معينة كما فعل اليهود . واستحق أن يكون دين التسامح والإنسانية .

وهناك أسباب كثيرة دعت الأوروبين أن يرموا الإسلام بالتعصب ، أولها أنهم هم متعصبون ، وهم يكرهون أن ينتشر

الإسلام أو يظهر فى بلادهم ، ثم أكثرهم مازال يحمل روح العداء الصليبي ولو استجابوا للمنطق الذى دعا إليه الإسلام وأخضعوا أنفسهم لمذهبه العقلى ما كان ثَمَّةَ عداءٌ ولا تعصب ، ولكن هناك جماعات نرى من أسس الدعوة لمذاهبها أن تقوم بدعاية منظمة ضد الإسلام، وقدرى الإسلام وقادة المسلمين بكثير من المفتريات ، ووقف بعض المستشرقين أمثال «جيوم» و«تريتون» و «وات» أقلامهم على طعن الإسلام وتلمس مايمكن أن يعاب به . ، ولكن الأيام تكشف تدريجيا حقائق الإسلام وزيف مايكتبون . ويحتاج الموقف إلى كشف هذا الزيف وشرح الإسلام على حقيقته أمام العالمين الغربي والأمريكى ، وأمام العوالم الذى تتصل بهما ، وهذا نوع من الجهاد فى سبيل التعريف بالإسلام والدفاع عنه .

والأستاذ خورشيد أحمد مشكور فيما ألف بنفسه وماترجم من رسائل الشيخ المودودى فى هذا الصدد وأشهد أنى كنت أسر كثيرا حينما أرى بيئة إسلامية بحتة فى انجلترا ، تؤدى شعائر الإسلام على وجه أكمل وأتم ، وعلى نحو ما تفعل الجماعات الإسلامية ذات النشاط الإيجابي فى مصر .

وقد وفق الله الأستاذ سعد زغلول أبا سنة، لنقل هذا المؤلف إلى اللغة العربية، فقدم به لمجمع البحوث مادة لا بأس بها، يمكن أن يقدمها بدوره إلى زوّاره العديدين الذين يفدون من بلاد يروج فيها ما يكتب هؤلاء المستشرقون .

ونسأل الله أن ينفع به وأن يثيب مؤلفه ومترجمه، إنه واسع الرحمة والرضوان .

د / عبد الجليل شلبي
الأمين العام المساعد
لمجمع البحوث الإسلامية

مقـــدمة

كثيرا ما واجهني السائلون في مناسبات لا تحصى بقولهم :
« الإسلام دين عنصري متعصب » .

ولقد حاولت خلال المناقشات والأحاديث العديدة دحض هذا الافتراء ، وبإعلان التقرير الصادر من هيئة التحقيق بمحكمة البنجاب في حوادث الاضطرابات التي وقعت في الهند سنة ١٩٥٤ بدأ خصوم الإسلام حملتهم الانتقادية ضد هذا الدين ، فقد حاولوا إثبات أنه لو صارت باكستان دولة إسلامية لأصبحت ميدانا للصراع الطائفي .

ولقد قدمت تفنيدا مفصلا لهذه الفرية في المقدمة التي كتبتها حول تحليل التقرير السابق ، وكشفت ما تنطوي عليه أسانيدها من مغالطات .

وقد رأى بعض الأصدقاء في مقدمتي المذكورة أنها تتضمن في جوهرها ما يصلح لأن يكون مقالا حول : « الإسلام ومشكلة التعصب » ، واقترح علي إعادة كتابته ونشره ، وقد أعيدت

بالفعل كتابة الجزء الأول من أصول هذا المقال كاملة ، وأضيف إليه فصل جديد حول « الإسلام والتسامح الديني » وذلك أثناء مراجعة نصوص هذا المقال الذى نشر ملخصه عام ١٩٥٧ م تحت عنوان : « الإسلام والتعصب » .

وإنى أذكر بالعرفان أن هذا الملخص قد لقى وقتئذ ترحيباً وتشجيعا كريمين ، وقد راجعت أخيرا أصول هذا المقال بأكمله ، وحاولت أن أجعله أكثر إحاطة وشمولا لموضوع التسامح الدينى كأصل من أصول الإسلام ، غير أنى مع ذلك بذلت قصارى جهدى كى أجعله موجزا قدر الاستطاعة حتى لا يمل القارىء مطالعته ؛ وبذلت العناية الواجبة لتقديم الحقائق بعد تمحيص كاف .

كما أخذت مادة هذا البحث من المراجع الرسمية وأعطيت اهتماما خاصا لهوامش هذا الكتاب فى مسايرتها للنص الأصلى للبحث ، كما ضربت العديد من الأمثلة حتى لا أتهم بالتقليد وعدم التجديد أو سوء الشرح الذى قد يعوق الفهم .

ولما كان هذا المقال مطروحا لأهل الفكر عندنا من الواقعين تحت سحر الغرب فقد رجعت أيضا إلى المراجع الغربية الرسمية ، فقدمت ذلك الجانب من الصورة أمامهم والذى يبقى عادة خافيا عنهم ، وأصبح لذلك محتما عليهم أن يفكروا مليا فى هذه الحقائق

الساطعة ، وأن يصلوا بعدها إلى رأى قاطع حول قيمة هذه المفتريات التى يقذفون بها الإسلام فى تعصب محموم .

وعلى أية حال فإنى أشعر بأن من واجبى أن أوضح بادئ ذى بدء أمرا واحدا ، وهو أنه يجب على أن أظهر فى مقالتى ذلك الجانب السيئ من المدنية الحديثة والذى يتحدى كل بدهية للحق والعدل .

ولقد كان هذا لازما لوضع الحقائق موضعها الصحيح .

ولكن ليس معنى ذلك أن المدنية الحديثة عارية من المحاسن ، فلقد حققت تلك المدنية انجازاتٍ رائعةً فى مجالات شتى ، مما يعتبر من التراث العام لبنى الإنسان ، والحضارة العامة لبنى البشر ، والتى ينبغى على كل فرد وكل دولة أن تفيد منها ، وأنا واحد من المعجبين بمنجزات العلم الحديث وأُقر لها تماما بجليل خدماتها للبشرية ، إلَّا أنه ينبغى ألا يعنى ذلك بالضرورة أن نتجاهل الجانب الآخر لصورة المدنية الحديثة ، ونتستر على مساويها بسبب بعض منجزاتها الناجحة .

وأعتقد أن كلا من المحاسن والمساوئ ، التى جلبتها المدنية الحديثة ينبغى أن يوضع كلاهما موضع الدرس ، وأن نعمل

النظر فيهما مليا ، وأن نحكم لهما أو عليهما بالقسط والعدل دون تحيز أو هوى .

وفى هذا المقال أوجه حديثى إلى هؤلاء القوم من خصوم الإسلام الذين يفوقون الغربيين أنفسهم فى إعجابهم بالمدنية الحديثة ، لهذا فقد ألزمت نفسى بتحقيقات تاريخية منصفة حول مشكلة التعصب وعدم التسامح .

ولقد عرضت فقط هذه الحقائق لاتصالها بالبحث الذى أقوم به ، ولم أعتمد على دراسة محاسن الغرب الحديث ومساوئه مجردة ، ولا أجد فى هذا المقام أفضل من أن أستعير كلمات ذلك الفيلسوف المسلم الكبير الذى أصبح فكره جزءًا من الهواء الذى نستنشقه ، وهو الدكتور محمد إقبال ، الذى يقول فى كتابه « بعث التراث الدينى الإسلامى » : إن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نقترب من المعرفة المعاصرة ، ولنقف منها موقف الاحترام ، ولكن مع الاستقلال عنها والتحرر منها ، لكى لا تعترض الثقافة الأوربية ببريقها الظاهر طريق حريتنا .

هذا هو ما أعتقده ، وهذا هو ما أؤيده . . .

إلى الخصوم الناقدين للإسلام أقول لهم : بدلا من أن يتهمونى

باختلال العقل الذى قد يبدو لهم أن يتهمونى به بسبب هذا المقال ، فخير لهم أن يحاولوا أن يتبينوا ما إذا كانت الوقائع والإحصاءات التى تضمنها رسمية أم لا ، فإذا كانت صحيحة ورسمية كما هى فى الحقيقة والواقع ، فبدلا من الانزلاق إلى ما لا يستحب فى المناظرة العلمية فلماذا لا يكونون أمناء مع أنفسهم فيستخلصوا النتائج والحقائق بأنفسهم ، حتى يتضح لهم مقدار ما فى هذه المفتريات على الإسلام من التجنى على الحق .

وأخيرا فإن خرافة القول سوف تتبدد يومًا ، ويصبح تكرار الأكذوبة غير ممكن إلى مالا نهاية ، وإن الحق لا يمكن أن يكون شبيهاً بالباطل ولا تجسيدًا له .

وأغتنم هذه الفرصة لأشكر كل الأصدقاء الأجلاء الذين عاونونى فى إعدادهذاالمقال وإنى مدين بالعرفانبصفة خاصةللأستاذ سيّد عبد الأعلى المودودى ، وكذلك لمولانا ظفر أحمد أنصارى الذين تفضلوا فأمدونى بكثير من التوجيهاتالسديدة ، كما أشكر الأستاذ الجليل خواجا عبد الواحد ، والأستاذ عبد الحميد صدّيقى والسيد ظفر إسحق أنصارى ، وكذلك تودرى غلام محمد ، لمعونتهم القيمة .

وأود أن أؤكد للقراء الأعزاء أنهم إذا وجدوا فيما كتبت خطأ أو رأياً لا يستحسنونه ، فإن ثمة أحدا من هؤلاء السادة العلماء الذين مدوا إلىّ يد العون فى هذا الكتاب ، ليس سببا له ولا مسئولا عنه .

كراتشى : أول أكتوبر سنة ١٩٦٠م .

خورشيد أحمد

---

* * *

محتويات الكتاب

يمكنك أن تخدع كل الناس بعض الوقت

وبعض الناس كل الوقت

ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت

إبراهام لنكولن

* * *

كلمة للأستاذ بكتهال

اعتاد الكتاب الغربيون عبر التاريخ أن يلصقوا بالإسلام تهمة التعصب وعدم التسامح ، وهذا يعتبر مسخاً للحقائق .

أفلا نتذكر أنه لم يُتْرَكْ مسلمٌ واحد حيًّا فى أسبانيا أو صقلية أو أبوليا ؟

هل نسينا أنه لم يُتْرَك مسلمٌ واحد حيا ولامسجدٌ واحد قائماً فى اليونان فى أعقاب الانقلاب الكبير الذى وقع عام ١٨٢١ ؟

أفلا نتذكر كيف أن المسلمين فى البلقان وهم أغلبية قد شردوا وأصبحوا أقلية تحت سمع أوربا وبصرها ورضاها ؟

وكيف أن المسيحيين تحت الحكم الإسلامى فى الأزمنة الأخيرة قد استحثوا على الثورة ضد المسلمين ، فأعملوا فيهم الذبح والتقتيل؟ ولما حاول المسلمون الدفاع عن أنفسهم حكم عليهم بالموت .

أفلا نتذكر كيف كفلت الإمبراطورية الإسلامية للمسيحيين واليهود — تحت حكمها — حرية العقيدة والحرية التامة فى شئونهم الداخلية فى مجتمعاتهم ؟

محمد مادمادوك بكتهال

من مجلة الثقافة الإسلامية — لاهور

* * *

الفصل الأول

مشكلة التعصب

كان خصوم الدّين خلال القرون الخمسة الأَخيرة يكيدون له كيداً عظيما فكانوا يقذفونه بشتى ألوان الافتراءات والاعتراضات ، ويبذلون الجهد ليصبغوا الدين بصبغة قاتمة تصنع منه للناس صورة بغيضة منفرة .

ولما كانت المدنية الغربية ثورة ضد فساد الكنيسة فى أُوربا فقد صنع أَبطال هذه المدنية من الحياة العصرية مادة لفكرهم ، وذلك للسخرية والاستهزاء بالدين ، وبانتهاء القرن الماضى كانت المادية والوجودية والعلمانية قد استولت على نفوسهم فى بلاد الغرب .

وفى خلال تلك الحقبة من التاريخ بدأَت الثقافة الغربية تنتشر فى العالم الإسلامى ، وترسب فى عقول أَهل الفكر من المسلمين نوعا من التشكك والارتياب نحو الدين ، أَى دين المسلمين أَنفسهم وهو الإسلام ، وهو ما يسمى « بالمذهب الارتيابى » الذى أَخذ ينمو ويسود وأَصبح خصوم الدين كثرة لا يستهان

بها ، وكان أهم ما يطعن به على الدين فى ذلك الوقت هو أنه يخلق نوعا من العصبية والتعصب وهو أثر من بقايا الماضى البدائى للإنسان القديم فيما قبل عصر الأديان .

وبدأ التعصب يلازم فكرة الدين ويتحالف معه يدًا بيد ، وأصبح دم الإنسان يراق فى الحروب الدينية ، وأخذت السلطات الدينية تضيق على الحريات السياسية ، كما أصبح لا مكان لحرية الفكر فى كل بلد دينى يسيطر عليه الكهنة ورجال الدين ، بزعم أن هذه هى تعاليم المسيحية ، التى تعتبر تعطيل الفكر وعدم مناقشة التعصب أساساً من أسس اعتناق المسيحية . . . وعند تعميد المسيحيين بصفة خاصة . . .

وهكذا أصبح الإثنان نقيضين لا يجتمعان ، فإما أن يخضع الإنسان للدين وحده أو للعلم وحده ، ولا يمكن أن يخضع لهما معا ؛ لأن الدّين ظل عدوا قويا للعلم .

وبإيجاز أصبح الدّين عنوانا التعصب والإنغلاق متعطشا لسفك الدماء باسم الدين ومظهرا للعنصرية العديمة التسامح ، ولكن فى العصر الحديث المتحضر المستنير أصبح لا مجال للدين المخضب اليد بالدم .

ولقد كانت معارضة الدّين منصبة أساساً على المسيحية التى ارتكبت أبشع أنواع الوحشية ضد الأقليات اليهودية من رعاياها ، واغتصبت من الناس حرية الفكر والعمل .

ولقد كان الصراع بين المسيحية والعلم صراعا دمويا وسيقت أعدادٌ لا تحصى من البشر إلى ساحات الإعدام بتهمة عدم تأييد الكنيسة [1] .

وفى هذا الصراع خسرت المسيحية المعركة ، وحاولت الجيوش الدنيوية المنتصرة إدانة المسيحية بتهمة التعصب الوحشى بكل وسائل الإعلام المختلفة (بالأجراس والشموع والكتب) .

وقد أساء المفكرون والناشرون من رجال الغرب الفهم عندما ظنوا أن بعض صور المسيحية ، وبعبارة أدق صور الكنيسة ،

---

(١) كتاب جون وليام درابر «تاريخ النهضة الفكرية فى أوربا» الجزء الأول المجلد الأول ، حيث صرح بأن محاكم التفتيش الكاثوليكية قد عاقبت فى المدة من عام ١٤٨١ - ١٨٠٨ حوالى ٣٤٠٠٠٠ شخص أعام من بينهم حوالى ٣٢,٠٠٠ شخص حرقا .

وقد ذكر كنيث ووكر إحصائية رهيبة عن البلاد التى عاشت فى سنوات الصراع الأولى فيقول : «إنه خلال القرون ١١، ١٢، ١٣ قد أعدم ٣٠٠٠٠ شخص بتهمة البدعة والخروج على تعاليم الكنيسة فى مدينة مدريد وحدها

(كنيث ووكر فى كتابه : تشخيص الإنسان صحيفة ٢١٠) .

هى وحدها النموذج الدينى الصحيح ، واستخلصوا من ذلك أن الدين فيما عدا ذلك ليس شيئا سوى التعصب بعينيه ، وأعلنوا بعد ذلك أن الدّين ـ أى دين بالطبع ـ يستتبع التعصب ويؤدى إليه ، وبالتالى قرروا أنه ليس ثمة حاجة إلى الدين فى العالم المتمدين ، وكلما بذلت الجهود بعد ذلك لإحياء الدين فإنها كانت توصم بالمذهبية والتعصب ، ولا زالت تدل الشواهد والممارسة والمعايشة لكثير منهم على صحة ما يقول حتى فى عصرنا الحالى . .

ويحاول الغربيون الوجوديون والماديون والشيوعيون من خصوم الإسلام حتى فى بلادنا أن يلقوا بهذا الافتراء على أعتاب الإسلام ، ولقد سعوا حثيثا فى السنوات العديدة الأخيرة فى تحركهم نحو هذا الهدف ، فكلما عقدت ندوة من ندوات البحث الأكاديمى حول طبيعة الفكر الإسلامى وخصائصه وحول قيام دولة إسلامية فإنهم يبادرون بدلا من مناقشة المشكلة الحقيقية إلى إقحام فكرة التعصب الدينى المقيتة .

ويضطرنا ذلك بطبيعة الحال إلى بحث وتحقيق مضمون هذا الافتراء على الإسلام ، ويتضمن هذا الكتاب محاولة لدراسة هذه المشكلة فى أبعادها الحقيقية ، وأعتقد أن هذا المضمون الذى

يضم الدين بأنه يستتبع أساساً وبالحتم فكرة التعصب إنما هو مضمون باطل ولا أساس له .

هل كان الدين هو السبب الوحيد للتعصب ؟ إذن فبمجيء المادية والشيوعية كان يتحتم أن يختفي التعصب ولكنه لم يحدث ! فلا أحد يستطيع أن يتخيل بفكره مدى النطاق الواسع من العنصرية والتعصب التي تسود بلدنا في هذا القرن العظيم ، الذي يشع بنور العلم والمدنية ، ولا يستطيع أحد أن يتغاضى عن جرائم الكنيسة في ذلك الماضي السحيق ، ويعزلها عن الأحداث الجارية في مجتمعنا المعاصر ، وإلا كان ذلك أمراً باطلا وغير مقبول[1] . .

وأعتقد أيضا أن تاريخ جميع الأديان في هذا الخصوص ليس متماثلا فالتاريخ الإسلامي يعطينا صورة مضادة لتاريخ الكنيسة

---

(١) الدكتور ويل ديورانت في المجلد الرابع في مؤلفه (تاريخ الحضارة) في مادة تاريخ الآثار حول قضية المدنية . في باب تاريخ العقيدة وعمرها يصرح بأن الغرب في الوقت الحاضر قد قتل مخلوقات أكثر في الحروب وأزهق كثيرا من الأرواح البريئة دون سند من القانون سوى منطق الحرب والاضطهاد العنصري الذي كان يتسابق عليه كل من القيصر ونابوليون .

ولقول حسبما يعتقد يجب أن ننظر إلى الحروب وإلى الاضطهاد العنصري في وقتنا الحالي على أنه لا يقل إظلاما ووحشية عما كان في العصور السحيقة للجنس البشري ، ويكشف اللثام عن الضراوة التي تكمن في قلوب بعض البشر بدرجة أشد وحشية .

الغربية ، وحتى فى الغرب فإن مسلك الكنيسة الأرثوذكسية كان مختلفا كثيرا عن مسلك الكنيسة الرومانية[1] .

ويمكننى القول أن كل محاولة إلى النزوع إلى العنف أو التمرد على التقاليد السائدة لا يلزم أن ينجم حتما عن التعصب فالمشكلة تدعو إلى كثير من التفكير وإعمال النظر . فهناك المناقشات الأساسية فى مقالتى حيث حاولت أن أعرض إحصائية رسمية حول الموضوع .

* * *

(١) لمزيد من التفصيلات راجع جوزيف سيد هام فى كتابه « العلم والدين والاشتراكية » وكتابه المسيحية والثورة الاجتماعية . أنظر أيضا ه ميلمان فى كتابه «المسيحية اللاتينية» ، وانظر أيضا أ.ب ستانلى فى محاضرته عن الكنيسة الشرقية .

الفصل الثانى

شبح التعصب البغيض

إن النقد الحاصل للتعصب الدينى يقوم على أسس واهية . فقبل كل شيء ينبغى أن يكون مفهوما تماما أن التسامح له حدوده ، فهل كان التسامح موجودا بلا حدود ؟ وكذلك التعصب أيضا هل كان يحدث دون أدنى معارضة ؟ فالتسامح هو فضيلة فكرية ولكنه ليس كذلك على إطلاقه .

فلو كانت حياة الفرد مهددة غير آمنة فإنه لايستطيع أن يعطى التسامح ويمارسه ببساطة ، ولو كان استقرار الحكم مهددا فى دولة ما بالخيانة والانقلاب فان ممارسة التسامح فيها لايمكن أن يتصور بسهولة .

وحتى برتراند راسل فإنه يقول : «إن الديمقراطية لاتستطيع أن تسمح بفوز الشيوعية بصوت (ديمقراطى) واحد» . ويستطرد قائلا : «نحن نعترف بأن الديمقراطية نظام مرغوب ونحن نحبذه ، وفى نفس الوقت لانستطيع أن نسمح بقيام

برلمان منتخب يقوم على أغلبية شيوعية ، لأننا على أبواب مستقبل ملئ بالمتناقضات .

فمشكلة التعصب ليست حديثة فى التاريخ بل تمتد جذورها إلى مراحل أسبق — وماذا يصنع أنصار الديمقراطية إذا صوتت الأغلبية ضد الديمقراطية ؟ أعتقد أن الجواب أن الديمقراطية تستلزم فرصا شرعية لتطوير آرائها وأنه ليس من الديمقراطية السماح بالسيادة الشعبية تسيطر إلى مالانهاية .

---

(١) انظر برتراند راسل فى خطابه إلى المنتشر جارديان المنشور فى ١٣ من أكتوبر ١٩٥٣م - وانظر أيضا الديلى تلغراف فى مقال هام حول الديموقراطية والحرية المنشور فى المجلة البريطانية عدد يناير ١٩٥٦ م، حيث عمدت فصلا مماثلا ويقول : نحن نعتقد أن الحزب الشيوعى يمكن أن يحاربنا لإيماننا النظرى بالديمقراطية - غير أن الشيوعيين ليست لديهم فرصة للكسب السياسى ،ولوكانت لديهم فرصة الكسب فإن البدهية السياسية تتطلب سرعة إعادة التفكير فى مبادئنا وتعديلها ، ويتضح لنا أن اشتراك الشيوعيين فى الانتخابات لا خطر منه على الأحوال السياسية أو التاريخية أو الأخلاقية التى اعتاد عليها الإنجليز والأمريكان فى تقاليدهم ، إذا أن الشيوعية تتعارض مع التقاليد الأمريكية والإنجليزية التى تقضى بوجود الفارق الكبير بين الشيوعية والنظم السائدة فى بريطانيا وأمريكا — ومن المفيد أن نلاحظ أن جريدة فى النيويورك تايمز قد رفضت نشر ملخص مقال للسناتور الأمريكى مكارثى بعنوان «حرية الصحافة تهدد أمريكا» .

ولعل أسباب رفض الجريدة نشر المقال يرجع إلى أنه يدعو إلى التضييق على الصحافه وقد يكون للسناتور الأمريكى الحق فى أن الحرية على اطلاقها قد تؤدى إلى إلحاق الضرر بالنظام الأمريكى وتهدد تقاليده .

ويجرنا هذا البحث إلى إثارة نقطة حساسة حول حدود الحرية والتسامح : فالمستر ناتانيل مايكليم يقول فى حديث له أذاعته دار الإذاعة البريطانية : «ينبغى أن تكون هناك حدود للحرية التى يستحيل أن تكون مطلقة . فهل نستطيع فى الوقت الحاضر أن نسمح للمدارس الشيوعية بنشر مناهجها وأفكارها ضمن مناهج التعليم فى بريطانيا ؟ . والإجابة البدهية لذلك هى كلمة «لا» .

وعلى ذلك فإن من واجب الحكومة البريطانية حفاظا على الوحدة القومية أن تلتزم سياسة الحذر الدائم نحو حرية الفكر وحرية الكلمة ، إذ أن رسالة التعليم هى خلق المواطن الصالح الجديد بأن يأخذ مكانه فى مجتمعنا الذى يعيش على التقاليد ، فالمدارس الشيوعية إذا أدخلت تعاليمها فى عقول أبنائنا الصغار فإنها سوف تلوث عقولهم ، وتحملهم على التفكير على ما يناهض مبادئنا القومية . . . » .

* * *

الفصل الثالث
السلطة الزمنية والتعصب

إن الافتراء على الدين بأنه يستلزم التعصب هى فرية قائمة على غير أساس مطلقا . فإن دراسة التاريخ البشرى قد أرشدتنا إلى أن التعصب الدينى قد خلقته العقول الضيقة لرؤساء الكنيسة المسيحية ، كما دل البحث على أنه كانت هناك محاولات لفرض قيود معينة على الفكر البشرى ، ولكن من غير المنطق القول بأن ذلك يعنى بالضرورة أن الدين يستوجب التعصب ويخلق العنصرية . . .

وقد دلنا التاريخ أنه بفصل الدين عن الدولة انتشرت المبادىء الوجودية ، ولا يمكن القول بأن الدين قد أدى إلى هذه النتيجة ، ولا مجال لوجود تعصب سائد تحت أى نظام دينى ، فالتعصب لايحدث إلا بسبب وجود الأفكار المتحررة لدى أصحاب السلطة الزمنية فى الدول التى لاتقوم على أساس النظام الدينى ، فالتعصب والدين لايجتمعان ، وتبقى هناك علاقة سببية بين التعصب وبين الفكر اللادينى ، وهذا هو الذى أثبته التاريخ بمقارنة الأنظمة فى الدول المختلفة . . . .

والحقيقة فإن كلا من التعصب السياسى والتحرر الفكرى يسيران جنبا إلى جنب فى العالم الإسلامى ، فإن مصطفى كمال زعيم تركيا ، وكذلك شاه إيران رازا يلقى ، كانا بطلى حركة التحرر الفكرى فى العالم الإسلامى ، ومع ذلك فإن نظام الدولة تحت حكمهما فى كل من تركيا وإيران كان نظاما قائما على التعصب ، وخنق كل محاولة لمعارضة النظام القائم فى جملته وتفصيله .

ومصطفى كمال فرض نوعا من التعصب لحماية حكمه بالتقليل من أثر الدين فى نظام الحكم . وقد كان كلا النظامين استبداديا متعصباً ضد أى معارضة لهما وتشابها فى كثير من حيث طبيعة كل منهما وتقاربا كثيرا من حيث النظرة العامة لكل منهما .

فمصطفى كمال دعم نظامه بحملات متعصبة ضد الدين وضد القادة الدينية وكان تعصبه فى ذلك حادا محموما ، فقد ألغى الأذان الشرعى باللغة العربية ، وألغى اللغة العربية ، وأحل محلها اللغة التركية كما ألغى الكتابة بالحروف العربية فى ٢٦ من مارس ١٩٢٦ م ، وأرغم شعبه على استخدام الحروف اللاتينية فى الكتابة فى ٣ من نوفمبر ١٩٢٨ م ، كما أوقف لبس الطربوش كغطاء للرأس بقوة القانون فى ٢٥ من نوفمبر ١٩٢٥ م ، وحل محله لبس القلنسوة الانجليزية رسميا ، ثم حلت الملابس

الأوروبية بالتدريج محل الزى الوطنى التركى ، كما ألغى كلمة الإسلام من الدستور التركى .

وصب هذا النظام المتعصب سخطه الوحشى الغاشم على الدين الذى ينهى عن الخضوع لغير الله ، وحتى المساجد فإنه أغلقها بالقوة ، فقد أغلق مسجدين عظيمين شهيرين فى استامبول ، هما مسجد أيا صوفيا ومسجد الفاتح ، وحولهما إلى متاحف ومستودعات على التوالى[1] .

فهل يعتبر هذا عملا من أعمال التسامح نحو الدين الذى يتهمونه بالتعصب ؟ أو كان الدين هنا ضحية لأعمال التعصب؟

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الأحزاب السياسية فى تركيا فإن جميع الأحزاب السياسية هناك قد حُلَّت وأُلغيت وقام على أنقاضها نظام ديكتاتورى صارم ، فكان لايجسر على معارضة أتاتورك أحد ، حتى أولئك الأعوان الذين لولاهم لما نجح أتاتورك

---

(١) انظر الشرق الأوسط ـ مطبوعات أوروبا لندن ١٩٥٧ م وكذلك س . موريسون فى Marrison «ميزانية الشرق الأوسط والمشاكل السياسية والاجتماعية والدينية » لندن ١٩٥٤م ـ وانظر أيضا أورويل هايد فى «أسس القومية التركية لندن ١٩٥٠ ـ انظر بربارا وارد عن تركيا. أكسفورد ـ وانظر (انكوا رت راستو« عن السياسية والإسلام فى تركيا من ١٩٢٠ إلى ١٩٥٠م وكذلك الإسلام والعرب» لاريسون ريتشارد.

فى القيام بثورته ، فإنه كان يدفع بالمعارضين منهم إلى ساحات الإعدام ، أو يعاقبهم بالنفى خارج البلاد ، ولم يذكر أتاتورك أبدا فى خطبه الحارة شيئا عن الحرية ولم يندد فى أحاديثه مطلقا بالتعصب ضد الدين ، ويمكننا أن نتصور المدى الذى وصل إليه تعصبه من هذه العبارة ، فى عام ١٩٢٦ وعقب محاولة فاشلة لاغتياله ، فإنه أعدم ما يعادل كل جبهة المعارضة بتمامها ، وقد سمح بأن يكون من بينهم صديقه الكولونيل عريف رفيق السلاح فى الحملة اليونانية ، وكذلك رافيدباى وهو أفضل عقل اقتصادى مفكر فى تركيا بأسرها .

وفى إحدى الحفلات التى أقامها فى قصره الريفى الوحيد فى كاتكيا بالقرب من أنقرة للفيف من أصحابه ، ودعا إليها أعضاء الهيئات الدبلوماسية بتركيا ، شاهد المدعوون عند انصرافهم قرب الفجر جثث من أعدمهم أتاتورك فى الميدان العام للمدينة .

هذه هى صورة التعصب أو التسامح فى أنظمة الحكم فى الشرق الأوسط ، وما حدث أيضا فى إيران يعتبر صورة طبق الأصل لما حدث فى تركيا .

* * *

الفصل الرابع

التعصب فى أوروبا وأمريكا

فشل التعصب والإلحاد فى العالم الغربى الحديث فى غرس فضيلة التسامح فى النفوس ، كما أن إصرار أوروبا على فصل الدين عن الدولة بعد انتهاء الحروب الدينية المريرة فى القرون الوسطى التى وقعت أساسا بين المعسكرين المسيحيين الرئيسيين المتصارعين سبب نزيفا دمويا بشريا رهيبا ، ونشر الدمار فى أوروبا ، وخلَّف وراءها محنة طويلة من الانهيار والتخلف ، ونشر الكراهية نحو الدين ، والإحساس نحوه بالمرارة والألم .

ولكن عصر المذهب المادى الذى بزغ فجره عام ١٦٤٨ فشل أيضا فى أن يضىء أفق العالم إلى طريق أفضل ، وكان من العسير القضاء على الحرب والتعصب نهائيا ، فإن مرت بضع سنين فى سلام وهدوء ، فإن ذلك لم يكن بسبب احترام الإنسان ، ولا ناشئا عن احترام عقائد الغير من المخالفين فى الرأى ، وإنما كانت تعتبر هذه السنون بمثابة هدنة حرب ، ناشئة عن

الإرهاق والاستنزاف ، لا تلبث أن تعود بعدها المعسكرات المتعادية إلى استئناف الحرب والقتال .

ولقد شهد القرنان الماضيان حروبا متواصلة من حروب العنصرية لاتنتهى وتخضب كل شبر من أرض أوروبا بدماء الضحايا الأبرياء من بنى الإنسان الذين قدموا قرابين على مذبح آلهة العنصرية المقيتة .... حروبا كانت تنشب فجأة ودون مقدمات لنشر الرعب والفزع فى النفوس ، وتزايدت الخسائر فى الأرواح زيادة جمة ، وكذلك فى العتاد كما أن مدد الهدنة بين حرب وأخرى بدأت تقل تدريجيا ، لتتواصل الحروب بين الفرق المتناحرة ، ولقد كانت الفترة الفاصلة بين حروب نابوليون والحروب الفرنسية البروسية ٥٣ عاما فقط ، وكانت الفترة الفاصلة بين هذه الأخيرة والحرب العالمية الأولى ٤٣ عاما فقط ، وكانت الفترة بين الحرب العالمية الأولى والثانية ٢١ عاما فقط ، وذلك فى الوقت الذى كان الإنسان يملك فيه كل أسباب السعادة التى تمكنه من العيش فى نعيم الرفاهية وجنة السلام ، ولم يكن ينقصه منها شىء مطلقا ، وفشلت السلطة الزمنية فى منع الحروب وشق فجر للسلام الحقيقى والإزدهار والمحبة والتسامح...

واليوم تسود الضغائن والتعصب كل آفاق الحياة الغربية ، كما أن أنانية السلطة الزمنية قد مزقت وشائج الإخاء والحب التى دعا إليها الدّين، فتدهورت القيم الخلقية وجعلت الإنسان فظاغليظا ، واستأنفت المعسكرات المختلفة فى الرأى والعقيدة الحروب الباردة ، التى باتت تهدد أمن العالم وسلامته ، وأصبحت القيم الروحية الآن فى الحضيض ، ويقول المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى موضحا ذلك المعنى : « إن حضارتنا المسيحية المادية المعاصرة فى معسكرنا الغربى هى على أحسن الفروض تكرار زائد لعصر ما قبل المسيحية الرومانية الإغريقية ، وعلى أسوأ الفروض صورة كريهة للارتداد عن طريق التقدم الروحى ، وفى عالمنا الغربى اليوم يعتبر تقديس القوميات وتمجيد العنصرية القبلية بمثابة دين قائم يساهم كل فرد منا فيه بنصيب معيّن ، وهذا الدين القبَلى الجديد يعتبر دينا وثنياً محضًا . . . . .

وقصة التفوق العنصرى بسبب الجنس فى ألمانيا ، والتميز الطبقى فى روسيا ، والتفرقة العنصرية بسبب اللون فى أمريكا وجنوب أفريقيا ، وسائر أنواع التمييز لسبب القوميات هى كلها صور بغيضة من صور التعصب المقيت .

وفى عصر سيادة الماديات والمذاهب المادية والوجودية تتزايد نزعات الكراهية والقسوة والعنصرية والعنف ، وإليك هذا التحقيق التالى :

يقول الأستاذ ا . ف . م دوربين « نحن مقدمون على فترة رهيبة من الخوف فى مساحة كبيرة من أوروبا ، ولقد عاد التعذيب إلى الظهور كأداة فى أيدى الحكومات لدعم سلطانها ، وفى روسيا يوثق الرجل والمرأة معا فى حجرات شديدة الحرارة والقمل يزحف فوقهما لعدة أيام ، حتى يتوفاهما الموت أو يصابا بالجنون أو يكتبا اعترافا بكل ما يطلب منهما ، أو يظلان دون نوم عدة أسابيع فى علب من الصفيح فى إضاءة نحيلة يقاسيان من ضجيج مستمر لاينقطع عن أذنيهما حتى تنهار إرادتهما وتتحطم شخصيتاهما تماما .

وفى ألمانيا يعذب الرجال بوخذهم بأسياخ مدببة من الصلب حتى الموت ، ويساقون إلى الإعدام دون أن يقام عليهم إدعاء مسبّق بشىء .

ونفس الشىء فى بريطانيا أيضا ولا يختلف كثيراً عما هو فى ألمانيا » .

ويقول الأستاذ دوربين : « وحتى فى بلدنا بريطانيا الهادىء هذا ، فإن أيدينا ليست كلها نظيفة تماماً . . . وفى ألمانيا بلغ انعدام الرحمة المدى عندما كان يستخرج الصابون من شحم جثث الموتى من رجال السياسة المخالفين فى الرأى بعد إعدامهم حيث كانت جثثهم تستبقى لهذا الغرض » .

وفيما مضى كان يعاب على الحكومات تعذيبها للناس وجرهم إلى ساحات الموت بتهمة البدعة والخروج على الدين ، ولكن الناس يساقون اليوم إلى تعذيب أشد فتكاوفظاعة لمجرد الخلاف فى الرأى ، وكذلك عند عدم التأييد أو للمعارضة السياسية أو بتهمة الانتماء إلى طبقات معيّنة كما فى روسيا ، أو الانتماء إلى جنس معين كما فى ألمانيا ، أو إلى لون معين كما فى أمريكا ، وجنوب أفريقيا ، بل وحتى فى أوروبا ، وحتى الانتماء أيضاً إلى جماعة معينة كما فى الولايات المتحدة الأمريكية . ودل الإحصاء على أنه فى روسيا كان حوالى ٤ ملايين من أغنياء الزرّاع يطردون من بيوتهم ومزارعهم للموت جوعا ، فى العراء أو للعمل فى معسكرات الاعتقال ، التى قدر عدد المعتقلين فيها بعدد يتراوح ما بين ١٥ مليون شخص إلى ٣٠ مليون شخص وأن محتويات هذه المعتقلات لا توصف ، وبلغت نسبة الوفيات فيها حدا رهيبا .

وفى ألمانيا قبل الحرب كانت نسبة المضطهدين إلى المجموع العام للسكان نسبة بسيطة ، ومع ذلك كان عددهم يتراوح بين ٣٠ ألف شخص إلى ٧٠ ألف شخص فى معسكرات الاعتقال ، وكان السكان اليهود الذين بلغ عددهم نصف مليون شخص يساقون إلى الموت بطريق العصر والضغط[١] أوينفوا خارج البلاد . والموقف فى ألمانيا الشرقية اليوم ليس بأفضل مما سلف ، حيث يصب التعذيب بأبشع مايتصور الإنسان على الذين لايؤيدون النظام ، وفى دول الغرب ومن بينها أمريكا وبريطانيا وفرنسا فالأمر فيها جميعا سواء ، وإن كان يتفاوت فى نسبته إلا أن جوهر المشكلة واحد . .

كل هذه الوقائع وكثير غيرها من الحقائق جعلت رجال الفكر يبكون حيرة وأسفاً ويقول الأستاذ دوربين أيضا : « إن هذا المدى

---

(١) حول التعذيب الجثمانى فى ألمانيا انظر الوقائع التى سجلها كتاب «الظلم فى أنظمة الحكم » المنشور بمعرفة الوزارة الاتحادية فى ألمانيا ،وقد نقل إلينا هذا الكتاب واقعة رهيبة فقد ذكر أنه قبض على جونتر هرتنج فى ٢٨ من ديسمبر ١٩٤٨ ويقول: «إننى لما أصررت إصرارا تاما على براءتى مما نسب إلى ورفضت أن أوقع على اعتراف وضع أمامى ، فقد أرغمت على أن أركع على ركبتى فوق أحد المقاعد وضربت بالسياط على باطن أقدامى وهى سياط متعددة الأطراف ، وبعد الجلد بالسياط إنهالت على اللكمات فى وجهى ، وأوسعت ضربا فى أحد المخازن المظلمة، تحت سطح الأرض وأرغمت على الوقوف على الركبتين فى ماء ممتلىء بكتل من الثلج ثم دخل أحد الروس السوفيت إلى الحجرة وأرغمنى على أن أضع إحدى قدمى فوق أحد المقاعد، حيث أحرقنى بقطعة من الحديد المحمى الأحمر فلما لم أذعن أو أتخاذل أحرق بالحديد المشتعل قدمى الثانية وكنت أصرخ من الألم وأسحف على أطرافى الأربعة من قسوة ما حدث لى» .

الواسع من الوحشية والقسوة والبشاعة لم يسبق لى مثيل من قبل فى التاريخ السابق للعالم » .

ويقول الدكتور ألبرت أينشتاين فى مقال تاريخى له :

« وفى أوروبا شرقى منطقة الراين لامجال لحرية الفكر حيث يشتد الإرهاب والتخويف الذى يقمع كل أثر للحرية بإطلاق شائعات كاذبة تثير الفزع بين السكان ، وأصبحت صحائف التاريخ سوداء مقفرة ، ليس فيها ظل لعمل إنسانى ، يصح أن يفخر الشباب فيه بأسلافهم ، من أبناء تلك المنطقة » .

وتقول جريدة المونتانى فى مقال حول أكل لحوم البشر أحياء :

« ليس هناك توحش بربرى همجى يفوق أكل لحوم البشر أحياء فضلا عن أكل لحومهم أمواتا ذلك بشى لحومهم بالنار وهم أحياء بأجسامهم وفى كامل إحساسهم . . .

ويقول الفيلسوف برتراندراسل فى مقارنته بين المدنية اليونانية والغربية :

« إن كثيراً من السمات المحزنة لذلك العصر كانت توجد بين اليونانيين ، فقد كانت العنصرية والفاشية والعسكرية والشيوعية يمارسها قادة عصابات سياسية محترفة ، وكانت لديهم وحشية غاشمة واضطهادات دينية ، وصحيح أنه كانت توجد فى اليونان شخصيات معتدلة كما عندنا ، ولكن تضاءلت الآن نسبة المعتدلين

من الرجال ، لما كانوا يلاقونه من نفي وتعذيب في السجون حتى الموت ، فالمدنية اليونانية كانت متفوقة تفوقا بارزا عن مدنيتنا ، خصوصا فى أنظمة الشرطة مما ساعد نسبة كبيرة من المفكرين المعتدلين على الهروب . وأخذت الأجناس البيضاء فى العودة إلى التعصب اللاهوتى الأعمى الذى أخذه المسيحيون عن اليهود ، وإنى أخشى أن تكون أوروبا مع ذكائها قد خضعت لهذا الإرهاب الدينى فيما عدا الفترة الوجيزة من عامى ١٨٤٨ ، ١٩١٤ ، ولكن لحسن الخط فالأوروبيون يعودون الآن إلى طبيعتهم المعتدلة[٧] » .

هذا هو السجل اللا إنسانى لأوربا ونظمها المادية الوجودية ، التى لم يكن من السهل مقاومتها والدفاع فى مواجهتها عن الدين ، ضد ما افترى به عليه من أنه يجلب التعصب ، ومن الواضح أن التعصب يتزايد عند عدم وجود الدين كنظام أساسى فى الحكم .

* * *

(٧) انظر برتراند راسل فى كتابه «المدنية الغربية» لندن ١٩٤٨ من صفحة ١٧٣ إلى صفحة ١٧٥ فيعتقد راسل أن الاضطهاد فى أوروبا هو نتيجة لطبيعتها ، وأن الاضطهاد الدينى للمسيحيين كان أيضا تعبيراً عن ذلك الطابع الأوروبى ويمكن للباحث أن يستخلص من ذلك أن مجال الاضطهاد كان بصفة عامة ضد الدين فالتفكير الأوروبى كان ضد الدين ولم يكن الدين هو السبب فى التعصب .

الفصل الخامس

التعصب الغربى ضد الثقافات الأخرى

لقد كان الموقف المتعصب للمدنية الغربية تجاه الثقافات والمدنيات الأُخرى محزنا ، ويُشكِّل صدمة أليمة لدى كل المعتدلين والمنصفين .

فمن الثابت أن عصر الديمقراطية كان فى نفس الوقت هو عصر الإمبريالية والعنصرية ، وعندما كانت باريس تتمدح بمبادئها الثورية الثلاثة ، وهى الحرية والإخاء والمساواة ، كانت القوات الفرنسية تغزو البلاد المستقلة فى أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا ، ووضعتها تحت سيطرتها الإمبريالية ، وفى بريطانيا فى الوقت الذى كانت فيه الديمقراطية الحديثة تمارس فيها كانت كل من الصين والهند تحت حكمها واستعبادها ، ووضعت شعوب تلك البلاد فى أغلال العبودية وأبادت ثقافات تلك البلاد بصورة بعيدة عن الإنسانية ، فقد تحولت الصناعات الهندية إلى أدوات إذلال للهنود حيث كانت

تتحول مقدراتها وخيراتها إلى الصناعات البريطانية فى لنكشير ، وافتقرت الصين لكى تغنى بريطانيا ، فقد أحرقت مكتبة شنغهاى الكبرى وتحولت إلى رماد لكى تروى ظمأ الإمبريالية نحو السيطرة ، ولقد كان الأفارقة ولا يزالون يلاقون حتفهم قتلا باسم عند « ارتكابهم » قيامهم بأى عمل يحاولون من ورائه إنقاذ ثقافتهم أو الدفاع عن استقلالهم[1] . .

ولقد صبّ الإمبرياليون الموت صبًا على الجزائر ، لأنها كانت تريد الحرية ، وكذلك نياسلاند فقد سامها الأوربيون سوء العذاب ؛ لأنها طلبت حق تقرير المصير ، وما حدث فى أمريكا اللاتينية هو الآن بمثابة كتاب مفتوح حيث قد برح الخفاء ، فالإمبريالية الغربية

---

(١) أنظر الدراسة الحديثة حول أفريقيا للمؤلف الأب تريفورها دل ستون وانظر أيضا كتاب كولنز بعنوان« دعاية للتسلية » لندن فهذا الكتاب يستعرض الحقائق الأليمة للتعصب الإمبريالى فهو ينعى على الدكتور ويروارد وزيرالشئون الداخلية حيث يقول «ليس هناك مجال للقوميات الوطنية الأصيلة فى المجتمع الأوروبى حيث يلعب اللون دورا هاما فى مجال تولى الوظائف العامة فيكون الفقر من نصيب الملونين السود والمركز والجاه من نصيب الأوروبيين البيض فكيف يمكن لنا أن نصدق دعوة الأوروبيين فى مواعظهم التى يدعون الناس فيها إلى التسامح وعدم التعصب ؟؟».

حاولت جهدها سحق الثقافات والحضارات الأخرى ، وإرساء دعائم حضارتها هي ، وكانت تعتبر ذلك بمثابة دعاية كبرى للتمدن الغربي . وفي آسيا وأفريقيا بدأت محاولات كبيرة لتضييق مجال الثقافات القومية فيها ، فلا زالت محاولات الإذلال ترسخ في مخيلة الناشئين من أبناء الأجيال الحديثة ضد ثقافاتهم ولغاتهم ، مستهدفة بذلك قتل عقولهم وفكرهم حتى لا يشتغل بمناهضة الاستعمار فلم يكن يسمح الامبرياليون بأى قسط من الحرية للدول الخاضعة للاستعمار بالنسبة لثقافاتهم وحضاراتهم ، وفرض الغرب ثقافته ومدنيته على الدول الخاضعة لنفوذه ، ولقد غزت الجيوش الغربية روسيا أعوام ١٦١٠ ، ١٧٠٩ ، ١٨١٢ ، ١٩١٥ ، ١٩٣١ ، وتعرضت الشعوب في أفريقيا وآسيا إلى موجات متلاحقة من الاعتداءات الإمبريالية في شكل بعثات تبشيرية غربية في شكل رحلات تجارية يقوم بها المغامرون طبقا لما حدث من جيوش الغرب خلال القرن الخامس عشر .

وفي خلال تلك الفترة احتل الغرب باقي الأراضي الفضاء في أمريكا واستراليا ونيوزيلاند وجنوب وشرق أفريقيا ،

فالأفارقة تعرضوا لمحلات تجارة الرقيق من الشرق حيث نقلوهم عبر الأطلنطى ليكونوا فى خدمة المستعمر الأوربى فى أمريكا ، كأدوات حية تتبقى فى أيدى سادتهم الغربيين ، كوسيلة نحو الثراء والغنى ، ولقد عانت الدول الشرقية بمرارة من سيطرة هؤلاء المغامرين أعداء الحرية والإنسانية والتسامح .

ويقول المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينبى :

« إذا قارنا بين الغرب وبين باقى دول العالم فى غضون القرون الخمسة الماضية ، فالعالم وليس الغرب وحده كان ولازال حقلا لتجارب مميزة ، فالعالم لم يضرب الغرب بل على العكس فإن الغرب هو الذى ضرب العالم بقسوة ، وكان مظهرا أليما للعدوان فى العصر الحديث ، وبالتأكيد فإن حكم العالم على الغرب لا يمكن أن يخطىء خلال فترة ليست بالهينة ، بل هى حقبة طويلة تمتد خلال أربعة قرون ونصف تنتهى بعام ١٩٥٠ »[(١)] .

* * *

(١) انظر أرنولد توينبى فى كتابة «العالم والغرب» أكسفورد ١٩٥٣ من صفحة ١ إلى صفحة ٤ حيث جاء به أن ليس من نافلة القول أن نذكر أن الحضارات القديمة قد استؤصلت من فوق سطح الأرض لأغراض تتعلق بتحقيق مكاسب اقتصادية ، وليس حبا فى مجرد المغامرة ، فقد حدث ذلك لشعوب كثيرة مثل كندا حيث تجردوا من تقاليدهم وأساليب معيشتهم ، وأحدث مجتمعاتهم فى الاختفاء التدريجى . وفى عام ١٩٥٢ لم يتبق منهم فى كندا سوى ثلاثون شخصا ، ولم يكن من بينهم نساء أحياء ، ولعل ذلك يجعل الأصل الكندى منقرضا ، وإن الموجود منهم هو الجيل الأخير الذى هو فى طريقه إلى الانقراض نهائيا» . انظر ميخائيل جوزيف أيضا . .

الفصل السادس

الإسلام وتعصب السلطة الزمنية

امتاز موقف الغرب نحو الإسلام والمسلمين بطبيعة مميزة ، فقد وضع مخططا لتشويه تعاليم الإسلام ومسخ نظامه فى الحياة ، مما شوه حقيقته فى نظر غير المسلمين من المثقفين وغير المثقفين على السواء .

ويعرض ويليام درابر هذه الحقيقة فى كتابه (تاريخ التطور الفكرى فى أوربا) فيقول : « يجب أن أنوه بالمخطط الذى وضعته الثقافة الأوربية للتخلص من التزاماتنا العلمية نحو المسلمين ، مما يعتبر عملًا غير ودى نحو المسلمين مما لا يمكن السكوت عليه إلى الأبد » .

وكذلك فإن روبرت برتفولت وروبرت جولوك ولفيف آخر من المؤرخين ينوهون بنفس هذا المخطط لتشويه تعاليم الإسلام ، فمعظم الكتاب الغربيين لا يسمون الإسلام إسلاماً بل يطلقون عليه كلمة « المذهب المحمدى » كما يطلقون على المسلمين كلمة « محمديون » مما يشعر

بأن هذا الدين من تلقاء نفس محمد صلى الله عليه وسلم وليس دينا سماويا .

كان ذلك فى المجال الروحى ، أما فى المجال الثقافى والسياسى لهذه الحملة اللادينية المحمومة فالأمر أشد خطورة ، ففى اليونان أُبيد شعب موريا عن آخره حتى النساء والأطفال والشيوخ ولم يبق منهم أحد فقد أفنى أكثر من ٣٠٠٠٠٠ ثلاثمائة ألف شخص تماما ، وفى أسبانيا وصقلية كان يذبح المسلمون كالبهائم ولم يترك مسلم واحد حيا أو غير منفى ، خارج البلاد ، وفى دول البلطيق تحول المسلمون من أكثرية إلى أقلية باستخدام الإرهاب والتعذيب المستمرين ، وفى اليونان دمرت جميع المساجد وأُغلقت نهائيا ، وفى فلسطين تسللت عصابة غير شرعية إلى البلاد أُعطيت وطنا قوميا على حساب تشريد المسلمين ، فلازال اللاجئون الفلسطينيون يعيشون حياة البؤس والتمزق ، فقد استخدمت الإمبريالية العنصرية إسرائيل كخنجر دفعت به فى ظهر أصحاب البلاد الشرعيين ، ولا يمكن أن يتناسى العالم الإسلامى بسهولة التعصب والاضطهاد اللذين يمارسهما الغرب نحوهم فى هذا المجال ، وما يحدث

الآن للمسلمين فى الاتحاد السوفييتى معروف تماما ، فالوجودية الغربية والإلحاد الروسى كلاهما فى هذا المجال سواء ، فتعصبهم وعنصريتهم الناشئين عن فصل الدين عن الدولة قد استشرى ، فهل يمكن بعد كل ذلك أن يكون التعصب شيئاً آخر غير ما يحدث ؟ . . .

* * *

الفصل السابع

العلم والتسامح

إن الأسطورة الخرافية الغربية التى تقول إنه بتقلص نفوذ الدين يبدأ عصر الحرية العلمية والثقافية ، وإن الدين يتعارض دائما مع الحرية والعلم والانطلاق الفكرى بينما تتضمن كلمات وسترمارك : « أن إخفاء الحقيقة هو عمل غير لائق فى مجال العلم » .

ومن المعروف أن العلم قد أسس سلطانه الأخلاقى بأن خلق فى رجال العلم الروح الصادقة الحقيقية نحو العدل والحيادة والإنصاف ، فليست هناك قيود على حرية الفكر ، ومن الحقوق الثابتة لكل فرد حريته فى التفكير عما يدور بذهنه ، ولو كانت آراؤه ووجهة نظره مخالفة للأفكار السائدة فإن ذلك لايستوجب التحقيق أو المحاكمة ولا الاضطهاد ولاالتجريم ، فمخالفة الأفكار السائدة العامة أمر لايستوجب اللوم أو التقريع أو المساءلة ، بل يجب على رجل العلم أن يرحب بمناقشة كل رأى مخالف ـ فمن اختلاف الآراء يتولد النور الذى يكشف عن الحقيقة التى هى مطلب العلم

ومقصده ، ولكن التعصب يمنع ذلك ، وبالتالى فهو أيضاً ضد الدين ، ولكن الحاصل شيء ومايجب أن يحدث شيء آخر ، فالحاصل هو التعصب والذى يجب أن يحدث هو حرية البحث والفكر .

وفى دنيا العلم قلما تنال المخالفة فى الرأى أو معارضة الآراء السائدة العامة أى قسط من التسامح ، فلازالت حرية الفكر ترسف فى الأغلال ، ولازال الاضطهاد سائداً ، فالعلم أبحاث وتجارب تستهدف الوصول إلى الحقيقة وهى تتقلب أحيانا وتستقيم أخرى ، حتى تصل إلى هدفها وهو الحقيقة ، وهذه كلها خواص قد تبدو معارضة لبعض أنظمة الحكم المستقرة فى الدول ، وكما كان الحال فى النظام الكنسى فى عهد محاكم التفتيش ،وإليك بعض الحقائق :

يجب على العلماء أن يوطنوا أنفسهم على مواجهة من يعارضهم أو يخالفهم ، وأن يستبعدوا من أساليب فكرهم محاولة النيل من قيمة أفكار غيرهم وانتقاص قدر فكر من سواهم من العلماء والباحثين فضلاً عن آراء غيرهم فى المجالات الأخرى غير العلمية . فجاليليو واجه معارضة من علماء عصره أكثر مما لقى من البابا نفسه ، فقد اخترع المنظار المقرب « تلسكوب » محاولاً تخطئة أرسطو وأصحابه والعلماء الآخرين الذين رفضوا الاستماع إليه

أو مشاهدته ،وهو يلقى بأثقال مختلفة من برج بيزا « نظرية الجاذبية » .

ولقد حدث ذلك تماما أيضا حتى قبل أن تنتبه الكنيسة إلى محاولات جاليليو العلمية ، وكذلك اللورد بيكون صاحب نظرية الاستقراء « أى التدرج من الشك إلى اليقين » ، فقد واجه معارضة مريرة من نظرية كوبر ينكوس . وقد أصبح هارفى أيضاً هدفا لأغنى حملات النقد اللاذع ، عندما أسس نظريته الجديدة عن الدورة الدموية ، فقد وصم بأنه إنسان « مختل العقل والتفكير » ، وبلغت المعارضة مداها إلى حد أنه تعرض لفقد نصف أبحاثه وضياعها ، وهو أسلوب جديد من أساليب الاضطهاد ، وكذلك الأستاذ ستنسون الذى اكتشف أن القلب عضلة ، فقد وجد علماء البلاد الواطئة (هولاندا وبلجيكا) غير متعاطفين معه ، مما اضطره إلى مغادرة البلاد حيث رحل إلى إيطاليا . وكذلك نظريات العالم جنز فى علم الحقن فإنها واجهت معارضة مريرة أيضا ، كما كان أو فن بروجر مكتشف نظرية الكشف الطبى على الصدر بواسطة النقر بالأصابع هدفا لهجوم مرير حتى إنه قال : « إن الحقد والحسد والكراهية والنقد اللاذع والتشهير

كانت تجد طريقها دائما إلى كبار المفكرين الذين أضاءوا العلم والفن بمكتشفاتهم » .

والأمثلة عديدة على ذلك فى مجال الطب فالسيرهربرت باركر قد وصم بعدم جدوى أبحاثه جميعها ، وحرم الدكتور اكسهام من التصريح له بمزاولة المهنة ، وشطب اسمه من سجلات الأطباء ، لسبب قيامه بتخدير مرض الدكتور هربرت السابق الذكر ، ولو رغب الناس فى استشارة الدكتور باركر الذى كان يعتبر وقتئذ زعيم المنشقين على الكنيسة (رغم أنه خفف آلام البشر وأوجاعهم الجسمانية) فإنهم كانوا يتعرضون لحملات من المضايقات والسخرية وكثيرا ماكانوا يمنعون من العلاج بتركهم يعانون من آلامهم الجسدية مدة طويلة . . .

ولقد تزعمت الجمعية الطبية البريطانية حملات التشكيك والنقد ضد اكشافات العلماء والمفكرين الذين كانوا يوصفون بأنهم خارجون على الدين ، فيشقون على الكنيسة ، مما كان يؤدى أحيانا إلى نفى العلماء خارج البلاد .

كما صادفت الانتقادات التى وجهها صموبل بتلر إلى نظرية داروين فى النشوء والارتقاء تجاهلا تاما ، ووصفت بالسخافة والتفاهة ربما لأنه عارض عملاقا من عمالقة العلم ...

وإلى هذا التجاهل أشار الأستاذ الدكتور توماس فى كتابه « داروين والعلم الحديث » وحتى مندل وآراؤه فى علم « الوراثة » فقد كان مصيرها التجاهل التام ، لأنها تضمنت نقداً للنظريات السائدة فى ذلك العصر . وكذلك دكتور دوجلاس ديوار زميل الجمعية البطرين البريطانية ، فقد حرم من أية فرصة لتقديم أبحاثه التى كانت تعتبر تحديا للأفكار المتطورة ، ولما كان مسيحى بالفتوحات العلمية لجمعية البطرين البريطانية ، وأعاد إليه الناشر مسودات الأبحاث ومعها الاعتذار التالى « إنى آسف لإعادة المسودات من غير نشر ؛ لأن لجنة النشر قد رفضت أبحاثكم ، ولقد استطلعنا رأى أحد علماء الحفريات ، والجيولوجيا الذى قرر أنه وإن كانت الأبحاث المذكورة قد استغرقت وقتا طويلًا للقيام بها ، إلا أنه يرى نتيجة البحث لا تتضمن شيئاً له قيمة تذكر ».

ومعنى ذلك أن للأبحاث بعض القيمة وليست كل القيمة فاعتراض لجنة النشر قد انصب على نتيجة البحث الختامية . . . .

ويكتب الدكتور ديوار عن نظرية النشوء والارتقاء التي تعرضت لانتقادات علمية جذرية : لقد كان الذين لا يسلمون بصحة هذه النظرية يعتبرون فاقدين للصلاحية لتولى المناصب العلمية ، كما أن مقالاتهم التى كانوا يبعثون بها إلى الصحف لنشرها كانت ترتجع إليهم كما أن نظرياتهم رفضتها الجمعيات العلمية ومكاتب النشر ، الأمر الذى يقود إلى تكميم أفواه العلماء وقمع أفكارهم .

وأيضاً ذلك المؤلف العالمى اللامع الكوماند آكوراث عن الطيور وعن قانونها الأساسى يقول : « لا يمكن لأى طير ولا لأى آلة أن تتعرض لأى ضغط من حركة البيئة التى تحتويها ، أو التى تقوم بتشغيلها وإلا توقفت » كان هدفا لنفس المعاملة ونفس المصير . . . .

و « مجلة الطبيعة » وهى طليعة المجلات العلمية راجعت الكتاب المذكور عن الطيور ووصفته بالسخف والهراء ، وذلك رغم أن جريدة المانشستر جارديان قد وصفت ذلك الكتاب بأنه كتاب رائع قيم حقا ، ويعتبر تحديا صارخا للنظريات السائدة فى علم الطيران ، وعلى الأخص علم هجرة الطيور والحشرات . . . .

وحتى قبل ذلك فإن العلامة هاكسلى زميل داروين قرر : « أن الغيرة والحقد هما من أقبح ذنوب رجال العلم » ويقول فى خطاب له كتبه عقب إرسال مسودات بعض أبحاثه إلى إحدى الجمعيات العلمية : « أننى أعلم أن هذا البحث قيم يمتاز بالإصالة ، وله أهميته الخاصة ، غير أنى لو بعثت به إلى المستر . . . . فإنه لا ينشر – وقد تتساءلون لماذا ؟ فأقول لأن المستر . . . . ظل يعتبر خلال العشرين عاما الأخيرة المرجع الأساسى فى موضوع هذا البحث فلا أحد يجرؤ على معارضته حتى ربما يكون قد اعتقد أن كل شىء فى هذا العالم أصبح ملك يمينه وفى حوزته » . . .

ويقول المستر أرنولد لان عن ذلك : « أنها محاولة لقمع حرية العلم والبحث ومظهر لفرض ديكتاتورية بعض العلماء المتخصصين على عقل رجل الشارع العادى » . . . وهو يصف هذا النوع من العلم بأنه « علم موجّه وأنه ينتزع بالتدريج المكانة التى كانت لدى الكنيسة يوما ما » .

إن هذ التكميم للأفواه ، وهذا القمع للحرية ، يعتبر مهددًا لفكرة التطور » ذاتها فالمستر أرنولد لان يقول نقلا

عن زميل للجمعية الملكية البريطانية : « إن من الانتحار المهنى للباحثين فى علم « الأحياء » أن يحاولوا مهاجمة النظرية السائدة عن التطور العضوى للأحياء » ...

والدكتور دويت أستاذ التشريح بجامعة هارفارد يقول : « إن الطغيان الذى يميز طابع العصر العقلى والفكرى حول نظرية التطور يتصاعد إلى درجة أنه أصبح لا رأى فيه للمخالفين ... فإنه لا يؤثر فقط (كما فى حالتى هذه) على أسلوب تفكيرنا ، ولكنه يشكل ضغطا وتهديدا كما كان يحدث فى أيام الإرهاب ...

ونادرا ما يجرؤ رجال العلم وقادة الفكر أن . يذكروا الحقيقة مما يجول بخواطرهم من أفكار .

الحرية فى العلم الحديث

سبق أن استعرضنا ما يحدث فى دنيا العلم والآن ننتقل إلى الكلام عن دنيا الحرية . .

والحق أن الحالة العامة للحرية فى العلم الحديث هى حالة مفزعة ، ويقول برتراند راسل فى مرارة : « إنى أعتقد أن روسيا ليست سوداء كما وصفت ، وأن أمريكا ليست بيضاء ناصعة كما يقال لنا » .

واستطرد قائلا : « لست أظن أن روسيا سوداء كما يقول أناس كثيرون وأنا ، وإن كنت لاأعرف الكثير عن روسيا ولكنى أستطيع القول بصفة عامة أن روسيا قليلة السواد .... وأمريكا بالطبع التى يقال إنها بيضاء ناصعة تحدث فيها أشياء رهيبة يجهلها الكثيرون ، فهناك الطغيان المستور الذى لاتدركه الأبصار فى العلن ، ولكنه فى الحقيقة رهيب فى تأثيره فأى شخص يكون على أدنى قدر من الصدق يعيش فى رعب ، لدرجة أنه إما أن يفقد حياته ، وإما أن ينفى خارج البلاد ، وأعتقد أن فى أمريكا حالة عامة من الإرهاب والخوف ، ولكن صحافتنا لا تظهر شيئا منها .

وسئل راسل : !! أليس من المحزن أن يخشى الرجل المفكر أن يفتح فمه ؟ وأليس صحيحا أن هناك رقابة سرية رهيبة كفيلة بإسكات كل صوت للحق وكل رأى فيه صدق ، حتى تظل الحقائق دائما خارج دائرة الضوء ؟ ـ فأجاب نعم .. نعم ، ويجب أن يتوقع الإجابة بنعم ألم يصدر ضدى حكم بالحبس ستة شهور ، لأنى قلت إن القوات المسلحة كانت تستخدم أحيانا ضد المناضلين ؟؟ ولم تنكر السلطات صواب ماقلت ولكنها أى السلطات قالت : « لم يكن ينبغى أن تذكر

ذلك علنا . ولم يكن ينكر أحد فى أمريكا حقيقة ماقلت ، وقد ذكرته عن مستند رسمى أمريكى وعلى ذلك فيجب أن يتوقع أن تكون الإجابة على السؤال بنعم .

والظروف فى أمريكا ترغم كل من يجد الحرية أن يخفض وجهه فى ذل . ويقول الدكتور روبرت هوتشينز الأمريكى المعروف الذى كان فى يوم ما رئيسا لجامعة شيكاغو : « أن التعليم مستحيل فى كثير من أنحاء أمريكا اليوم ، لأن حرية البحث والمناقشة مستحيلة أصلا ، ففى تلك المجتمعات الأمريكية لا يستطيع مدرس الاقتصاد أو التاريخ أو العلوم السياسية أن يقوم بالتدريس ، وحتى مدرس الآداب ، فإنه يجب أن يكون على حذر ، فقد وصف أحد أعضاء لجنة الرقابة على المصنفات المدرسية فى ولاية انديانا روبين هود بأنه مُخرِّب ، وكثيرا ماأُطلق الرصاص على مدرسين وضباط مسئولين وأُرغموا على ترك جامعة هارفارد وكاليفورنيا وتكساس ومتيشجيان ، بدعوى أنهم تعرضوا لنظريات خطيرة . كما أن الرقابة على المصنفات لم تترك شيئا فى البلاد إلا تغلغلت فيه ، وبلغت فى ذلك أقصى درجات السخف ، كما أن كل كتب التاريخ

والسياسة والاقتصاد تعتبر دائما محل الرقابة ومعرضة لهجوم المنظمات اليسارية .

وأصبح من الآمال الصعبة المنال العسيرة التحقيق ، أن يتوصل الإنسان إلى أبحاث علمية موضوعية نزيهة ، وعلى ذلك فتكون النتيجة أن أنصار التقدم أصبحوا يخشون قراءة مجلات معينة أو الانضمام إلى عضوية جمعيات معينة ، وأصبح الأساتذة والمدرسون يترددون فى مناقشة دروس معينة داخل قاعات الدرس ، وليس ببعيد ماحدث فى إدارة التعليم بمدينة نيويورك ، مما يعيد التأكيد بعدم توفر الحرية فى الفكرة والكلمة ، فهناك يقولون : « من الجائز لك أن تناقش الشيوعية مناقشة موضوعية ، على أن تشرح لتلاميذك كم هى تعاليم شريرة سيئة حتى يستخلصوا فى النهاية عدم صلاحيتها كنظام اجتماعى » .

وكذلك الرجال والنساء فقد أصبحوا يترددون فى الانضمام إلى أحزاب الأقلية التى يطلق عليها كلمة منظمات خطيرة غير متجاوبة مع النظام العام الأمريكى .

وسبق أن حدث فى إحدى المرات أن طلب إلى ضابط كبير من الملونين السود من ضباط الجيش أن يقدم استقالته من

الخدمة العسكرية ، حيث نسب إليه قراءة صحيفة « الديلى ويركر » (أى صحيفة العمل اليومية) ؛ ولأنه سبق اتهام والده بمهاجمة التمييز العنصرى فى البرلمان ....

ويشكو الدكتور الكسيس كاريل صاحب المؤلف الشهير « الإنسان ذلك المجهول » والفائز بجائزة نوبل من نفس الشيء ، فقد قام بدراسته حول معجزات حرية الفكر والرأى وثماره اليانعة على العلم ، وفظائع التعصب الفكرى والمذهبى ، فقال : إنه كثيرا ماركب المركب الصعب ، عندما كانت حرية الرأى خطرا على مستقبله ، أثناء قيامه بهذا البحث .

ويقول السير اوليفرجورج وهو من قادة الفكر والعلم : من المؤلم أن عهود الإظلام والتعصب التى رفعت الفكر فى حقبة ما قد استدارت وعادت إلينا بوجهها البغيض مرة أخرى ، ليعود المتعصبون لمعارضة النظريات الفكرية ، وليمنعوا تدفق العلم الحق والفكر الصائب .

والوضع فى روسيا كئيب حقا وليرجع القارىء إلى كتاب « العلماء فى روسيا » لمؤلفه كونوارزركل ليعرف حقيقة مجتمع العلم والفكر فى البلاد الشيوعية .

أما عند مشكلة الحرية فى التعليم فإن من المفيد جدا هنا أن نراجع التقرير الصادر من اتحاد الحريات المدنية فى كاليفورنيا عن متابعه التحقيق فى هذا الشأن ونحن ننقل هنا فقرة واحدة من هذا التحقيق :

«إنه عام كامل من الرعب وفشل للدارسين والأساتذة والإداريين... إطلاق النار على ست وعشرين من المحققين . . توقف أربع وخمسين من المناهج الدراسية المعتادة ، استقالة عدد كبير من الأساتذة ... رفض كثير من الباحثين التعيين فى المناصب الدراسية أو العلمية . . إدانة حركة مجالس الجامعات التى قامت بها كليات أخرى ومجتمعات علمية أخرى . . انهيارالثقة فى أمانة البحث العلمى فى الجامعة ، ولم يسبق أن وقع فى تاريخ التعليم العالى من العدوان على العدل والحرية فى مداه وفظاعته قدر ذلك العدوان الواقع على كبار العلماء وأساتذة جامعة كاليفورنيا ، فتلك الظروف المتناهية فى القسوة والفساد أدت بأحد علماء النفس أن يقول فى خطاب له فى مؤتمر دولى عام لعلم النفس فى مونتريا بكندا فى بحث حول حركة هجرة العلماء خارج أوطانهم ! « لقد أصبح من المستحيل عقد مؤتمر علمى دولى فى الولايات المتحدة الأمريكية » .

ثم يقول : « إن نسبة كبيرة من العلماء الأجانب قد رفضت الحكومة الأمريكية إعطاءهم تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة » . . . .

وحول جو الخوف السائد فى أمريكا يقول : « إن العالم أو الباحث أصبح يتملكه الخوف من أن تموت أسرته جوعا ، كما يتملكه خوف قوى أيضاً من أن ماسيقوله سوف يؤدى به إلى صدام مع الجو السائد للرأى العام ، مما يجعله مهددا بالفقر ، فاقدا لشجاعة الرأى ، وقد يصبح أعمى البصيرة فى قدرته على البحث والاستقصاء ، قلقاً جزعاً غير مستقر على الدوام . . . . . .

وإن الدليل المذهل على ذلك الجو السائد من الرعب والخوف هو خوف المحامين عند الدفاع عن المتهمين الذين تندبهم المحاكم للدفاع عنهم . . .

فقانون الإجراءات الجنائية يقرر : أن المحامى يملك كافة الصلاحيات التى تتطلبها مصلحة موكله فلا يخشى مطلقا لوم المحكمة أو تقريعها ، ولا يخاف تصرفات السلطة ، فلا شئ مطلقا يعوق قيامه بواجبه كاملا . . . » .

وفى تقرير لجنة خاصة بجمعية بار الأمريكية للمحامين فى يوليو ١٩٥٣ م يقول التقرير : « إن المحامين الأمريكين يسلمون عادة بأن من واجب المحامى عضو جمعية بار أن يرى أن جميع المدعى عليهم ، مهما كان موقفهم شائكا ، فإن من حقهم دائما طلب توكيل محامين خصوصيين للدفاع عنهم بخلاف المحامين الذين قد تندبهم المحكمة للدفاع عنهم . . » .

وفى قضية فرانكلين فى بلتيمور بالولايات المتحدة ترسل المتهمون دون جدوى إلى أكثر من ثلاثين محاميا ليتولوا قضيتهم .

وفى قضية فى بنسلفانيا اضطر المتهم نلسون أن يمثل أمام المحكمة لمحاكمته فى تهمة التحريض على الفتنة والشغب ، بعد أن توسل إلى ٧٠٠ محام فى مختلف مدن أمريكا أن يقبلوا الدفاع عنه ولكن دون جدوى .

وفى قضية المتهم فلاين فى الولايات المتحدة قدم المتهمون مذكرة بمرافعتهم إلى محكمة الاستئناف فى دور انعقادها قرروا فيها : « أنهم بعثوا إلى أكثر من ٢٨ مكتبا قانونيا فى أنحاء البلاد ، طالبين لقاء مع وكلاء هذه المكاتب لمناقشة موضوع رفع استئناف

عن قضيتهم ، وامتنع اثنا عشر مكتبا من هذه المكاتب عن الرد ورفض الستة عشر الباقون اللقاء بحجة أنهم لايستطيعون أولا ينبغى لهم قبول التوكيل عنهم » !!! .

هذا هو جو الخوف واضطهاد الفكر الحر وحول هذا التعصب يقول برتراند راسل : «أذكر بالأسف المناسبات التى كان يساق فيها ممثلوا الأغلبية المنتخبين فى بريطانيا إلى السجون ، مثلهم مثل سائر اللصوص والمجرمين ، كما حدث فى إنديانا من ثلاثين عاما مضت ، وكل إنجليزى يسافر إلى أمريكا فى الوقت الحاضر يرى بنفسه كيف يحكم الناس بالإرهاب ، فكل فرد هناك مضطر إلى أن يفكر مرة ومرتين قبل أن يقول مايعتقده بعكس مايعتقده الإنجليزى تماما ، من أن المعلم لاينبغى مثلا أن يحرم من وظيفته لمجرد أنه نشر بحثا علميا دقيقا ، تضمن حقائق تتعارض مع مصلحة عظيم أو كبير هناك ! ومع ذلك يقال : إن فى أمريكا مايسمى بالديمقراطية !!!

فكلمة الديمقراطية ظلت مضمونا غامضا حتى الأيام الأخيرة فقد ظل معناها «حكومة ممثلين عن الشعب » ولكنها فقدت هناك هذه الدلالة أخيرا ....

ومعناها فى روسيا « أنها حكومة مكونة من عناصر عسكرية مستبدة »

وفى أمريكا تعنى حكومة « الأثرياء » أو على أية حال حكومة يكون الأثرياء فيها « غير مكممى الأفواه » ..

وأخيرا وبعد هذا العرض الأليم ، الذى لم استهدف منه سوى إبراز بعض حقائق العالم المعاصر ، التى ينكرها الكثيرون فى مناقشاتهم ، إما بحكم التعصب أو بالانقياد لنظام ما .

وغالبا مايحاول خصوم الدين خلط الحقائق كالاستناد إلى أخطاء الكنيسة المسيحية ، واستعراض تصرفاتها ، والتوصل فى النهاية إلى أن كلا من الدين والتعصب توأمان لايفترقان . وإذا كنت قد استعرضت ماتعرضت له الإنسانية من أحداث أليمة فقد تلته متألما وبمرارة كبيرة . . وما فعلته إلا حرصا على الحقيقة ، وعلى الصورة الصادقة أمام أعين القراء ، ويؤدى بنا هذا النص إلى نتيجتين وثيقتين :

(١) ليست حالة الحرية فى المجتمع المتدين وردية مشرقة كما تصورها الدعاية الرسمية ، فالتعصب والغلو والإرهاب والعشرة لم تكن فقط من مخلفات الماضى ، بل هى حقائق معاصرة مريرة كذلك ، وعلى الرغم من كل التقدم والتحرر الذى

أحرزه الإنسان ، فإنه لم يستطع أن يرتفع فوق حاجز القسوة ورغم الحجج التى يسوقها الغرب المتحدين ، فإن عليه أن يعلم أن أرضه ليست بهيجة خضراء ...

(ب) يدل التاريخ على أن التعصب كان عنيفا قاسيا وأكثر مرارة ووحشية فى حكم السلطة الزمنية ، وكذلك فى النظم الإلحادية ، وهذا يكفى لدحض كل فرية تعم الدين بأنه يقر الإلحادية ، وهذا يكفى لدحض كل فرية تصم الدين بأنه يؤدى إلى التعصب ، وإذا كان التعصب يسود فى غيبة الدين فإن الحكمة فى ذلك لاتغيب عن أحد ، ومن السخف أن يقال : إن الدين هو مصدر الغلو والتعصب ، وأنه بالتخلص من الدين من حياتنا الاجتماعية والسياسية فإن عصرا من السلام والازدهار والتسامح سوف يشرق على الإنسانية ...

الإسلام والحرية والتسامح

وننتقل الآن إلى الشق الثانى من السؤال وهو : هل الإسلام متعصب ؟

إن دراسة مقارنة لتاريخ الأديان تدلنا على أن الإسلام لم يكن فى يوم من الأيام متعصبا ، كما يفترى عليه خصومه بل على العكس ، لقد كان الإسلام أكبر عون لحرية الإنسانية وحضارتها ، وأنه أوقد شعلة العلم والمعرفة ، وأنه أعطى الصدارة للعلم والتكنولوجيا وهى فن استخدام أدوات الحياة . . . وقدم للإنسان الفكر الحق والمضمون الصادق للحرية والعدل والمساواة .

وعلم الإنسان عظمة الحب والإخاء والتسامح ، وليس شىء سوى القرآن الكريم هو الذى طلب من المسلمين ألا يسفهوا عبادات غير المسلمين وأن يحترموا مشاعر الآخرين ، وهو مايعتبر ركنا فى العقيدة الإسلامية .. ويلهم الكتاب والسنة المسلمين المثل الحقيقية للتسامح ، ويحمل التاريخ الإسلامى الأدلة الوفيرة على ذلك ، وليس من الميسور هنا أن تعدد آيات هذا التسامح وتاريخه الطويل ووقائعه التى تجل عن الحصر ، وسنكتفى بسرد تعاليم الإسلام ، وما يؤيدها من السوابق التاريخية كتطبيق لنظرية التسامح

فى الإسلام ، وسنعرض هنا مرة ثانية بتوسع لنظريات المؤرخين من غير المسلمين ، والذين لايتعاطف معظمهم مع الإسلام ولقد شهد خصوم الإسلام بسماحته والفضل ماشهدت به الأعداء .

وينبغى أن يكون معلوما بادىء ذي بدء أن الإسلام ليس مجرد ديانة أو عقيدة أو مجموعة وصايا أو شعارات أو فلسفات فكرية . . كلا بل هو منهاج كامل للحياة فكرا وعملا . . . دينا ودنيا .. يقود البشرية فى كل ميدان من ميادين النشاط الإنسانى قيادة ناضجة واعية ..والإسلام أيضا نظام متراكب متكامل ينبغى أن يؤخذ كله كما شاءته الإرادة الإلهية فلا يؤخذ منه شيء ثم يترك منه شيء آخر فهو نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي نموذجى وباختصار فهو منهاج كامل لحياة الإنسان والإسلام ، لا يتكون من بضعة تعاليم روحية أو أخلاقية يصوغها فلاسفة أو مفكرون .. بل هو منهاج ونظام لسير الحياة وتدافعها بمعنى أنه إذا أمر بشيء أو نهى عن شيء فإنه يصحب ذلك بجزاء على عدم إطاعة الأمر وعدم الانتهاء عن النهى وذلك طبعا يحوّل الوصايا ، والأوامر إلى حقيقة حية . . فهو يقرن طاقة الإنسان وقدرته بالقيم والفضائل ، فلا تنطلق عشوائية هنا وهناك كما يقرن العدل

بالقوة حتى تترجم القيم الروحية إلى واقع نابض فى الحياة اليومية للفرد والمجتمع .

والهدف من قيام الدولة الإسلامية هو نشر الفضيلة ومنع الرزيلة ، ويقول القرآن الكريم : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ [1] » .

ولا يشبه تناول الإسلام للقضايا الخلقية تناول الفلاسفة لها ، فهو يهدف إلى تغيير نظام الحياة وإعادة بنائها فى ضوء التعاليم الروحية ، فهو يريد أن يؤسس القيم الروحية ويرسى دعائمها ، ويمكن القول بأن الإسلام هو من جهة فكر وفلسفة ، ومن جهة أخرى تطبيق وعمل ، وعلى ذلك فليس الإسلام مجرد فكر عار من التطبيق أو فلسفة أخلاقيات ، خالية من العمل والانقياد ، بل هو نظام عملى تطبيقى لحياة الإنسان ، وهو نظام اجتماعى وحياة دولة ، وهو يستخدم سلطان الدولة فى إقامة صرح العدالة ونشر الفضيلة

---

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .

والتسامح هو أحد الركائز الأساسية للعدالة . . وتستخلص نظرية التسامح الإسلامية من المبادىء الإسلامية الأساسية الآتية :

(١) الإسلام دين المساواة :

إن جوهر العقيدة الإسلامية هو التوحيد . . مبدأ وحدة الإله ، فالتوحيد هو حجر الأساس الذى يرتكز عليه نظام الحياة فى الإسلام . والتوحيد معناه أن هناك سلطانا غيبيا واحدا للكون وهو القادر ، قيوم السموات والأرض وكافل الإنسان ، وهو خالق الكون وسيده ، الذى يحكمه بسلطانه القوى شديد القوى .

والتوحيد ليس نظرية من نظريات ما وراء المنظور ، بل هو عقيدة سلوكية ونظرية ثورية ، وقوة تاريخية ، وإيمان بالقضاء والقدر .

والإسلام يقول إن جميع بنى البشر من خلق إله واحد وهم جميعا متساوون ، فالتفرقة بسبب اللون أو بسبب الطبقة الاجتماعية أو بسبب الجنس أو لأسباب إقليمية هى افتراء وخداع محض ! وكل نظام أو فكر يقوم على هذه الألوان من التفرقة هو الخطر الأكبر ، الذى يهدد عالمنا الأرضى ، فالإنسانية هى أسرة واحدة ، خاضعة لصانعها الواحد ، وهو الله ، ولا يمكن أن

يظلم إنسان لسبب لا يد له فيه ، كاللون أو الطبقة الاجتماعية أو الجنس أو الفواصل الإقليمية ، فكل الناس سواء لا بورجوازية ولا بروليتاريا ولا أبيض ولا أسود ، لا آرى ولا سامى لا شرقى ولا غربى .

والإسلام يعطى المفهوم الثورى لوحدة الإنسانية والمساواة بين بنى البشر . . وفى الإسلام لا يوقر إنسان لغناه أو لقوته ، ولا لانتمائه لجنس معين ، أو لانتسابه لطبقة اجتماعية ، أو رقعة معينة من الأرض . . بل يوقر الإنسان لإنسانيته المجردة عن الفوارق فالله تعالى يقول : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ(١) » .

ويقول أيضا : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ(٢) » أى أحرصكم على القيام بواجباته نحو ربه .

فاحترام بنى الإنسان يدعو إلى المساواة بين الناس وهو الأساس الناجح بعدم التمييز العنصرى بسبب الجنس أو اللون أو الأرض ، وهو أساس تعاليم الإسلام .

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

ويقول المفكر الهندى السير راما سوامى آير ! « ما الذى يعنيه الإسلام ؟ أنا أعتقد كما يعتقد كل المفكرين ، أن الإسلام هو العقيدة الديمقراطية الوحيدة التى لازالت حية فعالة باقية فى عالمنا إلى اليوم . . ولا يمنعنى من أن أقول ذلك أننى مواطن هندى تربى على العقيدة الهندية بل إننى أقرر أن ديانتى لم تنجح رغم عمقها الفلسفى فى أن تحقق عمليا الوحدة بين بنى الإنسان ، وليس ثمة دين آخر مهما كانت فلسفته وعمقه سوى الإسلام قد نجح فى أن يجسد ويحقق فكرة الوحدة الإنسانية وتساوى الناس أمام خالقهم الذى أوجدهم ، وليس سوى فى ظل الإسلام وحده تنعدم مشاكل التمييز العنصرى بين الناس كما يحدث فى جنوب افريقيا وفى استراليا البيضاء وفى الولايات الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية ، وحتى فى انجلترا بين طبقاتها الاجتماعية المحدودة .

ويعبر المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى عن مثل هذا النظر فى كتابه « محاكمة المدنية » حيث يقرر للإسلام أهمية عظمى فى محو الفوارق والقضاء على التمييز ؛ فى الوقت الذى تميز فيه العصر الحديث بمساوى هذا التميز ، فيقول : « هناك مصدران دائمان للخطر الذى يهدد الروابط والقيم الإنسانية فى عالمنا الغربى

المعاصر ، هما التمييز العنصرى والخمر » وفى مكافحة هذين اللونين من البشر . . يسدى الإسلام أعظم صنيع ، مما يثبت أن للإسلام قيمًا خلقية واجتماعية عظمى ، فالمساواة الإنسانية التى يتمتع بها المسلمون فى ظل الإسلام هى من أروع إنجازات الإسلام وأمجاده الكبرى . . وتوجد فى عالمنا المعاصر حاجة ملحة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية . .

والواقع – كما هو الآن – أن أنصار التعصب العنصرى فى ازدياد ولو سادت أساليبهم فى مجال المشكلة العنصرية فإنها ستؤدى فى النهاية إلى طاقة كبرى حتى يبدو أن قوى الحرية والتسامح والسلام تخوض الآن معركة خاسرة وتجتاز صراعا روحيا ذا أهمية عظمى للنوع الإنسانى يستهدف استعادة التوازن وإنقاذ كرامة الإنسان ضد قوى طاغية تتعصب للجنس والعنصر ، ولا شك أن الإسلام قد بات هو المنقذ الوحيد للبشرية لتحقيق الحرية والسلام . . » .

(ب) حرمة الحياة الإنسانية :

لا يستهدف الإسلام وحدة الإنسانية والمساواة بين الناس فحسب ، بل يعطى أهمية عظمى لتغليظ حرمة دم الإنسان .

فحياة الإنسان لها فى الإسلام قداسة وحرمة ، ولا يجوز إراقة دم الإنسان بغير حق مشروع ، وهذا هو ما يقوله القرآن الكريم

« مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إسرائيلَ أَنهُ من قَتَلَ نَفساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الأَرضِ فكأَنَّمَا قَتَلَ النَّاس جَميعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ولقد جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالْبَيِّنَاتِ ثم إنَّ كَثِيرًا مِنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِى الأَرْضِ لَمُسْرِفُون[1] » .

وفى موضع آخر عند مناقشة خصائص المسلم يقول الله تعالى : « والَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً[2] » .

وقد ورد هذا التحذير فى القرآن مرارًا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قُتِلَ دون دمه بغير حق فهو شهيد » وكلمة بغير حق تعنى فى نظر الإسلام ما قصدته الآية المذكورة ؛ لأنه لحياة الإنسان حرمتهاواعتبر سفك دم الإنسان حراما ولا يباح إراقة دمه ، إلا إذا قتل غيره أو سعى فى إيقاد الفتنة أو الفساد فى الأرض ، ولو ارتكب إنسان هذه الجرائم ، فإنه

(١) الآية ٣٢ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٦٨ من سورة الفرقان .

يفقد الحرمة والحصانة اللذين قررهما الإسلام له ويباح عندئذ قتله ، فهذان هما الشرطان الأساسيان اللذان يباح فيهما قتل الإنسان .

(ج) العدالة وسيادة القانون :

يدعو الإسلام أبناءه لحل المشاكل التى تواجههم بروح العدل والإنصاف أيا كانت العواقب . وفى نظر القانون فالكل سواء دون تمييز عند إقامة العدالة بين الناس ، فكلمة القانون هى العليا وإقامة العدل تعلو فوق كل شىء آخر .

وفى مجال القانون وإقامة العدل لا مجال للتفرقة حتى بين المسلمين وغير المسلمين يقول القرآن الكريم : « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ (١) » ، ويقول : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ (٢) » .

ويقول : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ

---

(١) الآية ٥٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٩٠ من سورة النحل .

بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [1] » .

ويقول : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى واتقُوا الله إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [2] » .

ويجمل التاريخ الإسلامى وقائع تجل عن الحصر على أن المسلمين قد ترجموا هذه الحقيقة إلى واقع عملى .

فالرسول عليه الصلاة والسلام قضى فى سرقة ارتكبتها امرأة من أشراف قريش بإقامة الحد ، ولم يقبل شفاعة أحد فى إقامة الحد عليها ، حيث قال : « والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » — وفى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتل رجل من قبيلة بكر بن وائل رجلا من غير المسلمين فى الحيرة فأمر الخليفة بقتله ، وقد تم ذلك فقام أولياؤه بقتله ، وفى حكم ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضى الله عنه شهد الشهود ضد أحد أبناء الخليفة عمر

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة .

والذى نسب إليه أنه قتل الهر موزان ، كما قتل ابنَة أبى لؤلؤَة التى يظن أنها اشتركت فى قتل والده عمر رضى الله عنهما . وفى زمن خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه رابع الخلفاء الراشدين اتهم أحد المسلمين بقتل رجل ذمى (من أهل الكتاب) ، فأمر على بقتل المسلم رغم عفو ولى الدم عنه ، إلا أن عليًا لم يقتنع بذلك حتى تأكد بنفسه من سداد الفدية التى يجب دفعها فى حالة عفو ولى الدم ، ويقول على كرم الله وجهه فى هذه المناسبة « للذمى حرمة فى الإسلام ، ودمه حرام كحرمة دمنا ، وماله له حرمة كحرمة مالنا » .

وحتى فى الأزمنة الأخيرة التى اضمحل فيها المجتمع الإسلامى فلا زالت لدماء الإنسان حرمتها ، وفى عهد أحد سلاطين المسلمين وهو السلطان محمد بن طفلاق حضر السلطان فى مجلس القاضى لتأييد الحكم على ولده الذى أساء سلوكه مع زوجة رجل من غير المسلمين ، ولقد عاقب السلطان أورنج زايب ألمجير حفيد رئيس وزرائه أسعد خان طافاخور ، الذى حاول اغتصاب امرأة رجل من غير المسلمين فكتب « إن من واجبى أن أمنع العدوان على الناس الذين هم أمانة أودعها الله فى عنق الحاكم » .

ونظرا لعدالة المسلمين فى قضائهم فإن غير المسلمين قد آثروهم على حكامهم من أبناء عقيدتهم .

ويقول السير توماس أرنولد فى كتابه « تعاليم الإسلام » عندما بلغت جيوش المسلمين وادى الأردن وضرب أبو أبيضة خيامه فى وادى الفهل ، فإن سكان القرية من المسيحيين كتبوا إلى العرب يقولون : « إننا نفضلكم على البيزنطيين ، مع أنهم من أبناء عقيدتنا ؛ لأنكم تحفظون عهودكم معنا وتقيمون موازين العدل بين الناس ، ويعتبر حكمكم علينا أفضل من حكم غيركم ، الذين اغتالوا أموالنا ونهبوا ديارنا ، ولقد أغلق سكان أرمًا أبواب مدينتهم فى وجه جيش هرقل ، وأخبروا المسلمين أنهم يفضلون حكمهم وعدلهم على ظلم وسوء حكم الإغريق .

(د) لا إكراه فى الدين :

الإسلام هو رسالة إيمان وقد كلف المسلمون بنشر دينهم وإقامة حكم الله على أرض الله ، وهناك وجهان لهذه القضية النهى عن المنكر والأمر بالمعروف . وتقضى تعاليم الإسلام أنه لاإكراه فى الدين ولا ينبغى حمل غير

المسلمين على الدخول فى الإسلام عنوةً ، إلاَّ أن القوة يمكن أن تستخدم بل يجب أن تستخدم عند مقاومة نشر الدعوة الإسلامية بالالتجاء إلى القوة ومقاتلة الطغاة الجبارين الذين يقفون فى وجه نشر الدعوة وعرقلة العمل الإسلامى ، فالإسلام لايقف فى هذه الحالة مكتوف اليد ، ولايأمر بالتسامح مع الطغاة الذين يقفون فى وجه نشر الدعوة ، ويقول الأستاذ عبد الأعلى المودودى ــ وهو عالم باكستانى مسلم ذلك بوضوح فى كتابة « الجهاد فى الإسلام » إن سيف الإسلام حاد وقاطع ، يشهر فى وجه الذين يعتدون على الدعوة ، ويبغون سحق الإسلام والمسلمين ، وفى وجه الذين يثيرون الفتنة فى هذا العالم بما يعهدون إليه من الإرهاب والطغيان ، ولا يستطيع أحد هنا أن ينكر مشروعية الجهاد ، أما الذين لايقاومون نشر الدعوة الإسلامية ، والذين لايضعون العراقيل فى طريق الله ، والذين لايحطمون السلام والأمن فى المجتمع الإسلامى ، فإن سيف الإسلام لا شأن له بهم أيًّا كانت عقيدتهم ؛ لأن الإسلام لا يتدخل فى عقائد غير المسلمين مهما كانت خاطئة ، أو معارضة للإسلام لايتهددهم بشىء فأرواحهم وأموالهم

حرام بحرمة الإسلام ، ولا شك أن سيف الإسلام ينحسر عنهم ولا يمتد إليهم) .

وهذا الرأى مبنى على تعاليم القرآن الكريم حيث يقول : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً (١) » .

ويقول : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) » .

ويقول : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٣) » .

ويقول الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ومن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤) » .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة المائدة . (٢) الآية ٣٩ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .
(٤) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .

هذه التعاليم واضحة محددة ، ولكنها أشد وضوحا فى كتاب الله حيث ينص على أن استخدام القوة بإكراه الناس فى الدخول فى الدين ، هو أمر يأباه الإسلام ، قال الله تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[(1)] » .

نزلت هذه الآية فى المدينة ، وربما يلقى سبب نزولها الضوء على معناها ، ففى العام الرابع للهجرة نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير خارج المدينة ، بسبب خيانتهم وعدوانهم وإفسادهم ، وكان من بين من شملهم النفى بعض أطفال الأنصار الذين كانوا من اليهود فى ذلك الوقت ، ذلك أنه إذا كان لأية امرأة ابناء لا يعيشون ، فإنها كانت تنذر أنهم إذا امتد بهم العمر فإنها تجعلهم يهودا ، فهؤلاء الأبناء هم الذين شملهم النفى وغادروا المدينة مع بنى النضير . وقبل أن يسود الإسلام قالت الأنصار إنهم سمحوا لأبنائهم بأن يكونوا يهودا ، عندما رفضوا الدخول فى حظيرة الإسلام ، اعتقادا منهم بأن الديانة اليهودية

---

(1) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

كانت أسمى وأليق بهم ، وأصلح لهم ، ولكن بعد أن ظهر الإسلام وساد كفّوا عن ذلك ، وأصبَحَتْ لهم عقيدة راسخة فى الإسلام فحاولوا عندئذ أن يكرهوا أبناءهم على أن يكونوا مسلمين ، قائلين إنهم لا يقبلون أن يظل أبناؤهم يهودا ، ففى هذه المناسبة نزلت الآية . . .

« لا إِكْرَاه فى الدِّين . . . » لقد فسَّر فقهاءُ الشريعة تلك الآية تفسيرًا واضحاً يرسى دعائم قاعدة فقهية هامة : فابن كثير – وهو من أكبر فقهاءِ الإسلام – يقول فى كتابه « تفسير القرآن » : « لا تكرهوا أحدا على اعتناق الإسلام ؛ لأَن هذا الدين واضح جد الوضوح ، وقضاياه واضحة مقنعة ، ودعوته جلية لا خفاء فيها ولا لبس ، وليس من الضرورى أن نرغم أَحدا على دخول حظيرته . . فمن يرد الله أَن يهديه يشرح صدره للحق فيرضى بالإسلام دينا بمحض اختياره ورضاه ، أما من ختم الله على قلبه فلا جدوى من محاولة إكراهه على الدخول فى حظيرة الإسلام » .

ويقول الإمام الزمخشرى وهو من مشاهير المفسرين للقرآن معنى الآية : « إن الله نهى عن الإكراه والجبر فى مجال الإيمان

والعقيدة ، وتركهما المحض اختيار الناس ورضاهم . . . وهذه الآية تفسرها آية أخرى فى القرآن . قال تعالى : « ولو شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا » وقال مخاطبا رسوله « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يكُونُوا مُؤمِنِين[1] » . يعنى لو صحّ ذلك لكان معناه أن الله تعالى يريد أن يكون الناس كلهم مؤمنين ، ولجعلهم ربهم كلهم كذلك تلقائيا من عنده ، ولكن ليست هذه مشيئة الله ، فقد ترك الإيمان لاختيار الناس وقال فى سورة الكهف : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمُ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِنْ ومن شَاءَ فَلْيَكْفُر[2] » .

ويقول الفقيه الإسلامى فخر الدين الرازى فى كتابه تفسير القرآن: « إن حرية العقيدة وعدم الإكراه عليها يتضحان بعد تقرير مبدأ النهى مباشرة من قول الله تعالى : « قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ » يعنى فيم الإكراه والأمور قد انجلت وظهرت واضحة المعالم ؟ وليس من المقبول ولا من المعقول أن تضيع قاعدة الجزاء على العمل ، فلو اكرهناهم لبطل الجزاءُ وانتفت الحكمة فيه ؛ لأنه — أى الجزاء — مرتهن بالإرادة الحرّة . . . » .

---

(١) الآية ٩٩ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٩ .

يدل هذا العرض بوضوح على سماحة الإسلام وعدم تعصبه ، ولقد قرر القرآن ذلك وطبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار عليه الخلفاء والتابعون والسلف الصالح ومن تبعهم من العلماء والمفكرين عبر السنين الطويلة . . فهل يعتبر هذا تَعَصُّباً... ؟ ؟ وهل هذا هو العلو والطغيان . . . ؟؟

تبقى بعد ذلك كلمة نقولها لخصوم الإسلام . . . (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين » ونقول لهم أيضا لقد أصبحت افتراءاتكم عارية من كل دليل . . . ويحمل التاريخ وقائع تجل عن الحصر شاهدة على سماحة الإسلام ، وأن المسلمين لم يجعلوها شعارات بل ترجموها إلى واقع وسلوك إيجابى وعمل دنيوى . . .

فما إن وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حتى أعطى الناس العهد والميثاق أنه : « إذا تعاهد معنا اليهود فقد دخلوا فى ذمة الإسلام ولهم حرمة الذميين ، فيعصمون منا دماءهم وأموالهم ولا سبيل لأحد عليهم ، ولهم حقوق تعدل حقوق المسلمين فى أمّتنا ونحن نتركهم وما يدينون أحراراً فى عبادتهم حرية المسلمين ، ويكون رسل اليهود ومبعوثيهم

فى أمان وحرية ومن جنى جناية فعليه الحساب والجزاء ، ويشهد عذابه طائفة من المؤمنين ، ولا يشفع أحد فى حدود الله ولو كان ذا قربى ، فما شجر من خلاف بعد ذلك بين أطراف هذا الميثاق فأمره إلى الله ورسوله » .

وتعالوا نستمع إلى خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه أول خليفة فى الإسلام التى ألقاها يوم أن جهز سرية الشام ، فهى تدل على روح الإسلام الحق فقد قال : « اعلموا أن الله حاضر لا يغيب فاذكروه فى كل حال ولو كنتم على شفا الموت وآمنوا باليوم الآخر وبالرجاء فى دخول الجنة ... واجتنبوا الظلم والطغيان ، وشاوروا إخوانكم فى كل أمر ، وتحابوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، فإذا قاتلتم فى سبيل الله فقاتلوا صفًّا كأنكم بنيان مرصوص ، ولا تولوا الدبر ، ولا تلطخوا النصر بدماء النساء والأطفال ، ولا تبيدوا النخيل ، ولا تحرقوا حقول القمح ، ولا تتلفوا أشجار الفاكهة ، ولا تقتلوا الأنعام وإن عاهدتم قوما فأوفوا إليهم عهدهم ، واحفظوا إيمانكم وعهدكم وستجدون أقواما على غير ملتكم فذروهم فى عبادتهم ولا تمسوهم بسوء ، ولا تخربوا صوامعهم .... » .

يقول الأستاذ توماس أرنولد تعليقاً على هذه الميول الإنسانية فى الإسلام والنزعات الرحيمة فيه : « إن التزام الفاتحين المنتصرين بهذه المبادىء التى أخذوها على عاتقهم ، وتلك الإنسانية الرحيمة التى رعوها فى غزواتهم وحملاتهم قد أثارت احترام الشعوب ، ففتحوا أذرعهم لاستقبال جيوش المسلمين التى تسلحت بمبادئ العدل والرحمة التى أرساها الخليفة أبو بكر » .

ونحن لا ننسى أنه لما استسلمت القدس للخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثانى خلفاء الإسلام ، كما يستطرد الدكتور أرنولد فى فقد وضع عمر المبادئ الآتية فى قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فهذا هو عهد عمر بن الخطاب عبد الله وأمير المؤمنين إلى سكّان بيت المقدس أننى أؤمن أرواحهم وأموالهم وأبناءهم ومعابدهم وصلبانهم ، وكل مايملكون أو يحوزون فى ديارهم وأراضيهم ، ومن معهم من أبناء ديانتهم ، وستبقى كنائسهم فلا يمسّها أحدٌ بسوء ، وكذلك أوقافهم واحفظ عليهم كرامتهم فلا أحد يغتصب متاعهم أو أملاكهم أو يمسّهم بسوء فكل من فى بيت المقدس آمن ... » .

ولقد زار الخليفة عمر بن الخطاب الأماكن المقدّسة وكان حذراً محتاطًا . .

كما يستطرد الدكتور أرنولد ـ حيث يقول : « زار عمر بن الخطاب أماكن العبادات يصحبه الكاهن الأكبر ـ البطريرك فلما كانوا فى كنيسة القيامة حان وقت صلاة المسلمين ، فأشار الكاهن على عمر أن يؤدى صلاته فى الكنيسة ، ولكن عمر الذكى قال إنه لو فعل ذلك لظن المسلمون من بعده أن الكنائس يجوز أن تكون أماكن لعبادة المسلمين » .

كان هذا هو منهج الإسلام ومع ذلك لا يتردد خصوم الإسلام فى أن يصوروا المسلمين بصورة الوحوش الضارية ، ولكن هل استطاعوا أن يحجبوا حقائق التاريخ عن أعين العالم كله إلا بستار من الدخان الذى لا يلبث أن يتبدد فى الهواء ، ويذهب جفاء فإن أنكروا الحقائق فإن إنكارهم لا يكون سوى قطرات الماء التى تتساقط على ظهر طير يسبح فى الماء لا يؤذيه ولا يشعر به . . . ! !

هذا هو مايقوله غير المسلمين من المؤرخين عن حقائق التسامح فى تاريخ الإسلام ، يقول جوبين فى كتابه « تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » : «منح محمد لمن أظلهم حكمه من غير المسلمين الأمان فى أشخاصهم ، والحرية فى تجارتهم وملكية أموالهم ، والحرية فى عباداتهم »

ويقول الدكتور روبرت بريفولت : « إن الحكومة الدينية فى الشرق – يقصد العالم الإسلامى – لم تكن أبدا متعسفة ولا متعصبة فلا إظلام ولا قمع لحرية الفكر ، ولا محاربة لمواهب العلم وثورة البحث والمعرفة ، على العكس من طابع العالم الأوروبى والإغريقى والرومانى » .

ويقول موير : « إن سماحة الإسلام مع أبناء الشعوب المغلوبة فى الحرب وعدلهم ونزاهتهم ومثاليتهم يكشف الصورة العكسية لطغيان الرومان وتعصبهم ، ولقد تمتع المسيحيون فى الشام بمزيد من الحرية تحت حكم الفاتحين العرب ، أكثر مما وجدوه منها تحت حكم هرقل ، ولم تكن لديهم أدنى رغبة فى العودة إلى الدولة السابقة على حكم المسلمين.

ولقد قرر ذلك أيضا السير توماس أرنولد حيث يقول : « لقد تمتعت الكنائس المسيحية المختلفة بعهد من الحرية والتسامح الدينى ، فى القرن الأول لحكم العرب ، الأمر الذى لم يكن معروفا من قبل لأجيال طويلة فى ظل الحكم البيزنطى . . »

وكثير غير ذلك من وقائع التاريخ الشاهدة على سماحة الإسلام مما لا يقع تحت حصر .

وينبغى على كل مؤرخ منصف أن يعترف بذلك .

وهى دلالة لازمة على أن كل دين لايخلق بالضرورة نوعا من التعصب ، ولا يثير بالحتم ضربا من التطرف ، وعلى الأخص دين الإسلام ، وعلى ذلك فالقول بأن الدين يؤدى إلى التعصب هو محض افتراء ، وكذب وضرب من البهتان ومحاولة إلصاق هذا الافتراء بالإسلام أمر يصادره العقل .

وهو الافتراء الذى لا يصمد أمام أدلة العقل والنقل .

وهو افتراء لايلبث أن ينهار ، لأنه ادعاء باطل لايقوم على أقدام ثابتة بل هى أقدام من طين هش لاثبات لها .

(هـ) الغاية لا تبرر الوسيلة :

لاتقتصر البراهين على سماحة الإسلام على ماذكرنا فلقد أمر الإسلام أبناءه عند نشر دعوتهم إلى الله أن يسلكوا فى ذلك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى : « ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ »[1] يعنى قولوا للناس قولا ليِّنًا سديدا ، فالإسلام يأبى أن يكره إنسان على اعتناق عقيدة بعينها ، ولا يسلم بنظرية « الغاية تبرر الوسيلة »

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل ..

وقال تعالى : « وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ[1] »

وقال تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] » .

هذا هو حكم الإسلام ولو كان يسمى هذا تعصبا فلنذكر كلمة شكسبير المأثورة «لو لم يكن للوردة إلا اسمها لكفاها رائحتها . .» .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل أول

رئيس مجلس الادارة

على سلطان على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤٩٩٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

٩٧٠٠-١٩٧٦-٥٠٠٢

---

(١) الآية ٣٤ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١٠٨ من سورة الأنعام .